الفصل الحادي عشر

أنساب العرب

للنسب عند العرب شأن كبير ، ولا يزال العربي يقيم له وزناً ، ولا سيما عربي البادية . فعلى نسب المرء في البادية تقوم حقوق الإنسان ، بل حياته في الغالب . فنسب الإنسان ، هو الذي يحميه ، وهو الذي يحافظ على حقوقه ويردع الظالم عنه ويأخذ حق المظلوم منه .

وقد يبدو ذلك للمدني الأعجمي أمراً غريباً شاذاً غير مألوف . ولكن هذا المدني نفسه يعمل بالنسب ويأخذ به ، وإن كان في حدود ضيقة . فجنسيته هي نسبه ، تحميه وتحفظ حقوقه . وليس نسب الأعرابي غير هذه الجنسية ، يحتمي به ، لأنه يصونه ويحفظ حقوقه ويدافع عنه . وهو مضطر الى حفظه ، والى عدّ آبائه وأجداده وذكر عشيرته وقبيلته ، لأنه بذلك يسلم ، ويحافظ على حياته. فإن اراد شخص الاعتداء عليه ، عرف ان وراءه قوماً ، يدافعون عنه ويأخذون بحقه من المعتدى عليه . وهو لذلك مضطر الى حفظ نسبه والمحافظة عليه .

وأما كون الحضر أقل عناية بأنسابهم من أهل الوبر ، فلأن الحاجة الى النسب عندهم أقل من حاجة أهل الوبر اليها . فالأمن مستقر ، ولدى الحضر في الغالب حكومات تأخذ بحق المعتدى عليهم من المعتدين . ثم ان مجال الاختلاط والامتزاج عندهم أكثر وأوسع من أهل البوادي وسكان الأرياف ، وكلما كانت الحواضر قريبة من السواحل ومن بلاد الأعاجم ، كان الاختلاط أوسع وأكثر ، ولهذا

أي أسماء حيوانات تسمت بها القبائل ، مثل (ذئب) و (كلب) و (أسد) و (ضبة) وأمثال ذلك ، وكلها كناية عن قبائل وشعوب عاشت قبل الشروع في تدوين هذه الأنساب أو في أيام التدوين .

ويظهر من كيفية عرض هذه الأنساب وجمعها وتبويبها أن في العبرانيين جماعة من النسابين اختصت بجمع الأنساب وحفظها، ومنهم من كان يعتني بجمع أنساب الغرباء عن بني اسرائيل ، وربما كان كتبة الأسفار من هؤلاء . فلما شرع كتبة أسفار التكوين بقصة الخلق وبكيفية توزع شعوب العالم وظهور الإنسان على سطح الأرض ، كان لا بد من ذكر الشعوب وأنسابها على أسلوب كتابة التأريخ في ذلك العهد ، فاستعين بما تجمع عند نسابي العبرانيين من علم بالنسب ، وأدرج في هذه الأسفار .

وقد وردت في التوراة في أسفار التكوين وفي (أخبار الأيام الأولى) أسماء قبائل عربية ، رجعتها الى مجموعات ، مثل مجموعة (يقطن) (يقطان) ، ومجموعة الإشماعيليين ، أي الإسماعيليين ، نسل اسماعيل،غير انها لم تشر كعادتها بالنسبة الى كل أنساب البشر الى المورد الذي أخذت منه تلك الأنساب . لذلك لا ندري اذا كانت التوراة قد اقتبست ما ذكرته عن أنساب الأمم من الأمم التي تحدثت عن نسبها ، بأن أوردت تلك الأنساب على نحو ما كان شائعاً متعارفاً عند الأمم المذكورة بالنسبة لنسبها ، أو أنها روتها على حسب ما كان متعارفاً عند قدماء العبرانيين في أجداد البشر وفي أنسابهم ، فدوّنتها على هذا النحو الشائع بين العبرانيين اذ ذاك .

أما النصوص الجاهلية ، فإنها لم تتحدث ، ويا للأسف ، عن مجموعات قبائل على النحو المتعارف عليه عند علماء النسب . ولكنها جاءت بأسماء قبائل عديدة كثيرة ، لم يعرف من أمرها أهل الأخبار والنسب شيئاً . فنحن نقف على أسمائها لأول مرة ، بفضل تلك الكتابات .

وقد أفادتنا الكتابات الجاهلية فائدة كبيرة من ناحية دراسة أسماء القبائل الواردة في كتب النسب والموارد الإسلامية الأخرى ، إذ مكنتنا من الوقوف على الصلات بينها ، وعلى معرفة ما سمي منها بالأب أو الابن أم الأم ، كما عرفتنا على مواطن عديدة من مواطن الخطأ التي وقع فيها النسابون وأصحاب الأخبار، وعلى كثير من الوضع الذي وضع في النسب أو في القصص المروي عن القبائل جهلاً

أو عمداً أو ظهوراً بمظهر العلم والإحاطة بأنساب العرب وأخبارهم ، الجاهليين منهم والإسلاميين .

ولم أجد في الشعر الجاهلي هذه القحطانية والعدنانية التي يراها أهل النسب والأخبار ، وأقصى ما وجدته فيه قصيدة للأخنس بن شهاب بن شريق التغلبي حوت أسماء قبائل وأسماء مواطنها ومواضعها ، هي : (معد) و (لكيز) و (بكر) و (تميم) و (كلب) و (غسان) و (بهراء) و (إياد) و (لخم)[1] . وهي قبائل بعضها عدنانية وبعضها قحطانية في اصطلاح أهل النسب ، إلا أنني لم أجد فيها أسماء آباء هذه القبائل ولا أجدادها ، ولم أستطع أن أفهم منها أن هذه القبيلة ، هي قبيلة عدنانية ، وأن تلك قبيلة قحطانية ، فقد جاءت الأسماء متداخلة وكل ما وجدته فيها مما يخص النسب ، هذا البيت :

فوارسها من تغلب ابنة وائل حماة كماة ليس فيها أشائب

ولم يرتفع الأخنس بنسب تغلب الى ما وراء وائل من آباء وأجداد .

والحق أن من يقرأ هذه القصيدة دون أن يقرأ اسم صاحبها ، يرى أنها من قصائد الشعراء المتكلفين الذين ظهروا في أيام الدولة العباسية ، ولن يخطر بباله أبداً أنها من نظم شاعر جاهلي . وأنا أريد أن أتجاسر فأقول : إني أشك في صحة نظم ذلك الشاعر لهذه القصيدة ، وأسلوب نظمها يأبى أن يرجعها الى ذلك العهد .

وقد خصص (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) فصلاً بـ (أخبار الأخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث) ، ذكر فيه أسماء بعض من عرف واشتهر بحفظه للأنساب ، ولا سيما من ألف فيهم تأليفاً في النسب . وقد طبعت بعض مؤلفات المذكورين ، وهي متداولة بين الناس . والذين ذكرهم (ابن النديم) هم من اشتهر وعرف وذاع خبره في العراق وفي البيئة التي اتصل بها (ابن النديم) ، وهم من أهل الحواضر في الغالب ، إلا أن بين أهل البوادي والأماكن القصية النائية المنعزلة جماعة كانت قد تخصصت بالنسب ، انحصرت شهرتها في البيئة التي

---

١ المفضليات (ص ٩٥ وما بعدها) ، طبعة السندوبي ، القاهرة ١٩٢٦ م .

عاشت فيها . ولهذا لم يصل خبرهم اليه والينا ، وكثير منهم لم يؤلف في النسب تأليفاً ، وإنما حفظه حفظاً ، شأنهم في ذلك شأن النسّابين الجاهليين ، أو الذين أدركوا الاسلام .

ونجد في كتب الأدب والتواريخ قصصاً عن بعض النسابين في الجاهلية وفي الإسلام ، يثير الدهشة من قدرة وشدة الحافظة عند أولئك النسابين في حفظ الأنساب . وقد عرف أحدهم بـ (النسّابة) ، فقيل : (فلان النسّابة) أو (النسابة) . وقد كان لهم شأن خطير بين قومهم ، لأنهم المرجع في الأحساب والأنساب ، واليهم المفزع عند حصول اختلاف في الأمور المتعلقة بها .

ويذكر أن الخليفة (عمر) أمر بتسجيل الأنساب وتبويبها وتثبيتها في ديوان ، وذلك عند فرضه العطاء ، « فبدأ بالترتيب في أصل النسب ، ثم ما تفرع عنه ، فالعرب عدنان وقحطان . فقدم عدنان على قحطان لأن النبوّة فيهم وعدنان تجمع ربيعة ومضر ، فقدم مضر على ربيعة لأن النبوّة فيهم ، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش ، فقدم قريشاً لأن النبوة فيهم . وقريش تجمع بني هاشم وغيرهم ، فقدم بني هاشم لأن النبوة فيهم ، فيكون بنو هاشم قطب الترتيب ، ثم بمن يليهم من أقرب الأنساب اليهم حتى استوعب قريشاً ، ثم بمن يليهم في النسب حتى استوعب جميع عدنان[1] . وقد كان هذا التسجيل سنة خمس عشرة للهجرة ، في رواية ، أو سنة عشرين في رواية أخرى[2] .

وذكر أن الخليفة قال : (أيما حي من العرب كانوا في حي من العرب أسلموا معهم فهم معهم ، إلا أن يعترضوا ، فعليهم البيّنة ، كالذي فعله مع (بجيلة) رهط جرير بن عبدالله بن جابر ، وكانوا قد تفرقوا ، واغتربوا بسبب حروب وقعت بينهم والتحقوا بقبائل أخرى . وروي أن عوف بن لؤي بن غالب ألحق نسبه بـ (غطفان) ، والتحق نسب بنيه (بني مُرّة) بغَطفان ، ويقال إن الخليفة قال : لو كنت مستلحقاً حياً من العرب ، لاستلحقت بني مُرّة ، لما كنا نعرف فيهم من الشرف البين ، مع ما كنا نعرف من موقع عوف بن لؤي بتلك البلاد . ثم قال لبعض أشرافهم : إن شئتم أن ترجعوا لنسبكم من

---

١ البلاذري ، فتوح (٥٤٩/٣) ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١١٣/٣) ، بلوغ الارب (١٩٠/٣) .

٢ الكامل ، لابن الاثير (٢١٢/٢) ، اليعقوبي (١٣٠/٢) ، الطبري (١٦٢/٤) .

قريش ، فافعلوا . ولكنهم كرهوا أن يتركـــوا نسبهم في قومهم ، ولهم فيهم من الشرف والفضل ما ليس لغيرهم »[1] .

وقد ضاعت أصول الجرائد التي دوّنت عليها الأنساب في ذلك الديوان ، ولم يبق منها شيء . ويظهر ان أهل الأخبار لم ينقلوا صورها ، وانما أخذوا الأسس التي قام عليها التسجيل على نحو ما ذكرت ، وبالجملة فإن في اشارتهم الى تلك الأسس والقواعد التي سار عليها الخليفة في اتخاذ القربى بالرسول والوضع القائم للقبائل ، فائدة كبيرة لدراسة أسس تثبيت الأنساب عند العرب في صدر الإسلام .

ويذكر ان الذي قام بوضع مخطط الأنساب وبتسجيل القبائـــل والعشائر وفق الخطة التي أشرت اليها ، هو (عقيل بن أبي طالب) ، وهو من الثقات في معرفة الأنساب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وان الذي أشار عليه بتدوين النسب في الدواوين هو (الوليد بن هشام بن المغيرة) لما رآه من عمل الروم في تسجيل العطاء في بلاد الشام[2] .

ولم يقتصر التسجيل المذكور على تسجيل نسب القبائل وحدها ، بل شمل ذلك نسب أهل القرى أيضاً ، كنسب أهل مكة والمدينة والطائف وغيرها . وذلك لأن سكانها وان كانوا من أصحاب المدر ، وقد أقاموا واستقروا في بيوت ثابتة ، الا انهم كانوا كالأعراب من حيث الانتساب الى الآباء والأجداد . وقد رأينا ان عمر كان قد بدأ بقوم الرسول ، وقومه حضر ، من أهل مكة ، الا انهم كانوا لا يختلفون عن أهل الوبر في التعلق بالأنساب وفي حفظها ، لأن حياتهم الاجتماعية وان كانت في قرية ، الا أن غريزة المحافظـــة على النفس والدفاع عن الحقوق حملتهم مثل الأعراب على التمسك بالعصبية ، بعصبيـــة النسب ، ليتمكنوا من المحافظة على الأمن والسلامة والمال ، لعـــدم وجود حكومة قوية تقوم اذ ذاك بتأمين هذه الواجبات . ثم ان هذه الأماكن محاطة بالأعراب ، وبين أهل مكة من كان شبه حضري ، وبيئة مثل هذه لا بد لها من الاحتماء بعصبية النسب ، وبالتزاوج مع الأعراب ، لتكوين رابطة دموية،تؤدي الى عصبية تضطر الطرفين الى الدفاع عن مصالحها المشتركة وتكوين كتلة واحدة تستجيب للنخوة ولنـــداء

---

١ شرح المفضليات (ص ١٠١ ، ١١٦) .
٢ البلاذري (٥٤٩/٣) ، الطبري (٢٠٠/٣) ، ابن ابي الحديد ، شرح (١١٣/٣) .

الاستغاثة في ساعة الحاجة والضرورة. ولهذا كان للتزاوج عند العرب أهمية كبيرة في السياسة . ومن هنا نظـــر سادات القوم والملوك الى التزوج من بنات سادات القبائل الكبيرة نظرة سياسية في الدرجة الأولى وذلك لشد عضدهم ولتثبيت ملكهم ولضبط القبائل ، وبضبطها يستتب الأمن وينتصر على الأعداء. وقد كان لزواج معاوية في الإسلام من (كلب) أثر كبير في السياسة الأموية وفي تثبيت ملكه وملك ابنه يزيد وملك مروان الذي انتصر بهم في معركـة (مرج راهط) على القيسيين .

وعلى الرغم من التسجيل المذكور الذي كان للعطـاء ، أي لأغراض حكومية رسمية ، فإن أنساب القبائل لم تثبت ولم تستقر الا بعد ذلك بأمد . وآيـة ذلك ما نجده من خروج قبائل في العصر الأموي من نسب قديم ، ودخولها في نسب آخر جديد . وقد كان شروع النسابين في تسجيل علمهم وتدوينـه ، مما ساعد كثيراً ولا شك في تثبيت هذه الأنساب واقرارها،ولا سيا أنساب القبائل المشهورة المعروفة ، وقد وصلت بعض كتب الأنساب ، وطبع قسم منها .

وقد وضع بعض المؤلفين ، مثل الواقدي أبي عبدالله محمد بن عمر المتوفى سنة (٢٠٧ هـ) ، مؤلفاً في (وضع عمر الدواوين ، وتصنيف القبائل ومراتبها وأنسابها)[1] ، الا انها ضاعت ، فحرمنا الاستفادة منها ، ولو بقيت مثل هذه المؤلفات اذن لكان لنا علم قيّم ورأي في كيفية تصنيف القبائل في تلك الأيام .

وقد كان بعض النسابين قد تخصص بنسب جماعة من العـرب ، جماعة قومه ومن يرتبط بهم في الغالب . مثل (الزبير بن بكّار) صاحب (كتاب نسب قريش وأخبارها)[2] ، ومثل (عقيل بن أبي طالب) ، وكان قـد تخصص بنسب قريش ، ومثل (أبي الكناس الكندي)،وكان أعلم الناس بنسب كندة، ومثل (النجار بن أوس العَدْواني) ، وكان من أحفـظ الناس لنسب (معد ابن عدنان) ، ومثل (عديّ بن رئاث الإيادي) ، وكان عالماً بإياد ، ومثل (خراش بن اسماعيل العِجْلي)،وكان عالماً بنسب ربيعة[3] . وعن هؤلاء وأمثالهم

---

١ الفهرست (ص ١٥٠) .
٢ الفهرست (ص ١٦٦) .
٣ الفهرست (ص ١٤٦)

أخذ أهل الأنساب علمهم بالأنساب، ووضعوا كتباً في نسب القبائل أو في أنساب العرب ، أو في أنساب جماعة منهم .

ولتسجيل (عُمَر) للأنساب شأن كبير بالنسبة الى الباحثين في تطور النسب عند العرب ، لأنه ثبت بذلك الأسس ووضع القواعد للنسابين في الإسلام وقلل من الاضطراب الذي كان يقع في النسب، بسبب الاختلاط ، وعليه سار المسلمون في تقسيم العرب الى أصلين . ولا بد أن يكون لهذا التقسيم أصل قديم ، يرجع الى ما قبل عمر . أقره الخليفة ، وجعله أساساً له في التقسيم الذي بقي مرعياً متعارفاً عليه بين النسابين الى اليوم . ويمكن أن نقارن هذا العمل ، أي تسجيل النسب وتثبيته في سجلات ، بالعمل الذي قام به (عزرا) في تثبيت أنساب اليهود وتدوينها ، وفي تدوين انساب الغرباء ، لتستقر بذلك الأنساب فسار من جاء بعده من النسابين في تعيين النسب على اساس ذلك التدوين[1] .

وفي القرآن الكريم آيات تشير الى عناية القوم بأحسابهم وأنسابهم ، ولكنه لم يتعرض لبيان وجهة نظرهم بالنسبة اليها ، ولا يشعر في موضع ما منه بوجود تلك الفكرة التي ألحّ على وجودها أهل الأخبار ، وهي انقسام العرب الى ثلاث طبقات أو طبقتين ، ووجود نسبين أو جملة أنساب للعرب ، ولم يرد فيه اسم (عدنان) ولا (قحطان) ، ولا أي من هذه الأشياء التي يتمسك بها أهل الرواية والأخبار ، ويقصونها لنا على أنها من الحقائق الثابتة في أنساب العرب، وعلى أن العرب كانوا حقاً من جدّين هما : عدنان وقحطان .

بل كان ما ورد في القرآن يشعر أن العرب كانوا ينظرون الى أنفسهم أنهم من جد أعلى واحد ، هو : (ابراهيم) وأن (ابراهيم) أبو العرب : (وجاهدوا في الله حق جهاده . هو اجتباكم . وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم . هو سماكم المسلمين ...)[2] . فلم يفرق بين عرب قحطانيين وعرب عدنانيين . ورُوي : ان الرسول قال : (كل العرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام)[3] .

---

١ Hastings, P. 286.

٢ سورة الحج ، رقم ٢٢ ، الاية ٧٨ .

٣ ابن سعد ، الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٥) .

بل حتى الشعر الجاهـــلي ، لا نجد فيه اشارة واحدة تفيد اعتقـاد الجاهليين بوجود أصلين أو ثلاثة أصول أو أكثر لهم . وكل ما ورد فيه هو فخر بقحطان وفخر بعدنان أو معدّ أو غير ذلك من الأسماء التي تعد من أسماء الأجـداد التي ينتهي اليها (الشعب) أو (الجذم) . وأما التفصيلات الأخرى والأسماء الواردة في كتب النسب أو الأخبار والتواريخ ، فهي من روايات الإسلاميـــين . ثم إن من الشعر الجاهلي ما لا يصح أن يكون جاهلياً ، ومنه ما قيل قبيل الإسلام ، ولا يصح كل الشعر الجاهـــلي أن يكون شاهداً على آراء أهل الجاهلية البعيدين عن الإسلام .

كذلك لا نجد في شعر الجاهلية سلسلة نسب قحطان أو عدنان . ولا نجد في الأخبار ما يفيد وقوف أهل الجاهليـــة عليها . وهي سلسلة أخذت أسماؤها من التوراة ، وبعضها أسماء محرفة موضوعة على شاكلـــة الأسماء التوراتية . أما في الحديث النبوي، فقد ورد أن الرسول انتسب الى (أدد) ، وهو والد (عدنان) ، ثم قال : (كذب النسابون)[1] . وفي كل ذلك دلالة على أن أسماء آباء قحطان وعدنان ، إنما دونت وتثبتت في الإسلام . أما قبل الإسلام ، فلعل بعضهم وفي أيام الرسول ، كان قد تلقن من اليهود نسب قحطان ، وان بعض اليهود لقن العرب نسباً لعدنان ، فلما لاكت الألسنة تلك الأنساب ، وسمعها الرسول قال : (كذب النسابون) .

أما أسماء أبناء قحطان وعدنان فما دون ذلك ، فإنها أسماء عربية في الغالب ، وينقطع منها أثر التوراة وأثر الأسماء التوراتية ، مما يدل على ان النسابين العرب كانوا على علم وبصيرة بتلك الأسماء ، وأنها كانت معروفة عندهم . وهي أسماء لا ترد في التوراة ولا خبر لها عند اهل الكتاب .

وقد ذهب (دوزي) الى وجود فروق أساسية بين القحطانيين والعدنانيين ، حتى ذهب الى وجود اختلاف بين نفسية كل جماعة من الجماعتين[2] . وأنا لا أريد أن أنكر عليه وجود العداء الذي كان قد استحكم بين القبائل التي تنتسب الى معد أو الى قحطان ، ولا أريد أن أنكر عليه تهجم شعراء اليمن على قبائـل معد ،

---

١ نســب عدنــان (ص ١) .

٢ Dozy, Gesch. d. Mauren in Spanien, Bd. I, S. 73, Goldziher, Muh. Stud. Bd. I, S. 89, Nallino, Reccolta, Vol. 3, P. 73.

أو عدنان ، ولا تهجم شعراء عدنان على قبائل اليمن المنتمية الى قحطان ، ولا أريد أن أنكر افتخار اليمانين بانتسابهم الى اليمن ، ولا افتخار العدنانيين بانتسابهم الى عدنان أو مضر أو معد أو غير ذلك من أسماء الشعوب والأجدام ، لا أريد أن أنكر شعر (امرىء القيس) في افتخاره بنسبه في اليمن[1] ، ولا أن أنكر شعر غيره من الشعراء اليمانين أو الشعراء العدنانيين في الافتخار باليمن أو بمضر أو بمعد. ولكنني لا أريد أن أنكر في الوقت نفسه افتخار القبائل القحطانية بعضها على بعض، وافتخار القبائل العدنانية بعضها على بعض ، وهجاء القبائل القحطانية بعضها لبعض ، وهجاء القبائل العدنانية بعضها لبعضها هجاء لا يقل عن هجاء اليمن لمعد أو هجاء معد لليمن . فهل يصح أن يتخذ هذا الهجاء سبباً لوضع نظرية في اختلاف أجناس هذه القبائل ؟ وهل يصح أن نجعل هذا الهجاء حجة على تباين أصل القحطانيين ، وعلى تباين أصل العدنانيين ؟ ان جاز ذلك،وجب علينا اذن اعادة النظر في كل ما هو مكتوب عن أصول القبائل وفي كل ما هو مدوّن في كتب النسب والأخبار .

هذا (سلامة بن جندل السعدي) ، وهو من مضر ، يحمل في شعره على معدّ ، ويهجوها هجاءً مراً[2] ، وهذا (قيس بن الخطيم) لسان الأوس يحمل على الخزرج ، ويردد ذكريات الأيام التي كانت بين الأوس والخزرج بمثل الشدة التي تجدها في شعر الهجاء الذي قاله العدنانيون في القحطانيين، والقحطانيون في العدنانيين . إنه ذكر تلك الأيام لا لمجرد الفخر والتباهي ، بل ليثير في نفوس الأوس الأحقاد القديمة ، وليزيد في تلك النيران نيراناً . لقد ذكرهم (بيوم الربيع)[3] ، وذكرهم بـ (يوم السرارة)[4] ، وذكرهم بـ (يوم مضرس

---

١ (انا معشر يمن) ، Muh. Stud. Bd. I, S. 89.

٢ همت معد بنا هما فنهنهها عناطعان وضرب غير تذبيب
بالمشرفي ومصقول اسنتها صم العوامل صدقات الانابيب
المفضليات (ص ٢٢٧) .
وقال الجميع الاسدي :
سائل معدا من الفوارس لا اوفوا بجيرانهم ولا غنموا
المفضليات (ص ٤٥) .

٣ شعر قيس (ص ٧)

٤ شعر قيس (ص ٢٠)

ومعبس)[1] ، وهو يوم دارت فيه الأيام دورتها على الأوس ، فقتل منهم عدد كبير ، وانهزم أكثرهم الى بيوتهم وآطابهم ، حتى خرج النـاس من طوائفهم الى مكة يستعينون على الخزرج ، وذكرهم بأيامهم الأخرى[2] . كل ذلك بلهجة عنيفة شديدة،ليس فيها لين ولا رفق . إنه ينظر الى الخزرج نظرة عداء وحقد، نظرة تشعر منها أن الأوس جنس وأن الخزرج من جنس بعيد آخر . لقد ذكر قريشاً بخير ، وذكر أنها ستحمل عنهم حرب الخزرج ، وذكر أنهم لو التحقوا بأبرهة اليماني أو بنعمان أو عمرو[3] ، لنالوا من هؤلاء كل تقـدير ، ولجعلوا لهم جاهاً أي جاه .

ذكر أبرهة حاكم اليمن ، وذكر غسان ولخماً ، وذكـر أهم من ذلك كله قريشاً على انها ستحمل الحرب وستقابل الخزرج عما قريب . وقريش من عدنان، والأوس والخزرج من قحطان ، ولم نجد في شعره ما يذكر برابطة النسب بين الخزرج والأوس. ولم يرد في شعره اسم قحطان أو عدنان . والقصيدة التي ذكر فيها هذا اليوم هي من أقدم قصائد هذا الشاعر الذي اضطرت قبيلته (الظفر)، ومعها (عبد الأشهل) الى مغادرة يثرب والتفتيش عن حليف يساعدها في العودة الى ديارها ، فذكر قيس قريشاً ، وكأنه يذكر قبيلة قريبة من قبيلته[4] ، مع انها من نسب آخر في رأي النسابين .

وفي كتب الأدب والدواوين شعر كثير ينسب الى شعراء جاهليين وشعـراء مخضرمين وشعراء اسلاميين ، فيه هجاء عنيف من شاعر قحطاني لقبائل قحطانية، ومن شاعر عدناني لقبيلة عدنانية، وفيه مدح وفيه إغراق من شاعر قحطاني لقبائل عدنانية ، وهجوم عنيف على القحطانيين ، وهكذا. ولو أردنا شرح ذلك وسرد الأمثلة ، لأخذ ذلك منا وقتاً طويلاً يخرجنا عن صلب الموضوع ، وينقلنا الى أمور أخرى لا صلة لها بهذا البحث .

ثم إن علينا أن نحسب حساباً لأمر هذا الشعر المروي في المدح والفخر وفي

---

١ شعر قيس (ص ٣٢) ، ديوان حسان بن ثابت (تحقيق هرشفلد) (ص ٨٣ فمـا بعـدهـــا) .
٢ شعر قيس (ص ٣٢) .
٣ شعر قيس (ص ٦٧) (القسم الالماني) .
٤ شعر قيس (ص ٦٦) (القسم الالماني) .

الذم والهجاء ، وهو عندي أوسع باب من أبواب الشعر يحتمل النقـد ، واثارة الشكوك حوله . وقد خبرنا من الكتب أن القبائل كانت تستأجر الشعـراء لقول المدح أو الذم ، وانها كانت تعد الشاعر منحة من منـح الله على القبيلة ، لأنه لسانها الناطق والذائد عنها بشعره ، يدافع عن قبيلته ، ويهاجم أعداءها، ويتهمهم بكل ما يصل اليه فنه من الهجاء ورمي التهم ، كائنين ما كانوا قحطانيين أو عدنانيين . وقد اقتضت طبيعة الخصومة التي زادت حدتها في الإسلام بـين يمن ومضر وضع شيء كثير من هذا الشعر شعر المنافرة والمفاخرة بين عدنان وقحطان، وهذا أمر وقع ، مفروغ منـه ، لا شك في صحته وثبوته ، اقتضته ظروف السياسة ، فيجب الانتباه له حين التحدث عن نزاع قحطان وعدنان[1] .

وترينا الأخبار أن ما نسميه بنزاع قحطاني وعدناني لم يكن شديداً في الجاهلية بين القبائل التي كانت تقيم في الأنحاء الشمالية من جزيرة العرب ، أي بين تلك القبائل التي رجع النسابون نسبها بحق أو بغير حق الى عدنان أو قحطان ، بمثل تلك الشدّة التي تظهر في النزاع الذي تحدثوا عنه بين القبائل التي كانت تعيش في اليمن أو في الحجاز . وهذا أمر ذو بال ، يجب أن يحسب له كل حساب عند الحديث عن نزاع عدنان وقحطان[2] .

وترينا الأخبار كذلك أن الخصومات التي وقعت بين القبائل العدنانية نفسها ، أو بين القبائل القحطانية نفسها ، لم تكن أقل عنفاً وضراوةً من ذلك النزاع الذي وقع بين من نسميهم بالقحطانيين ومن نسميهم بالعدنانيين . لقد اتخذ شكـلاً عنيفاً، شكلاً يجعلك تشعر أن تلك القبائل كانت تشعر انها قبائل متباعدة لا يجمعها شمل ، ولا يربط بينها نسب ، ولا تجمعها جامعة دماء على النحو الـذي يرويه ويذكره أهل الأنساب والأخبار .

والغريب أنك في كل ذلك النزاع المرّ العنيف ، لا تسمع فيه انتساب كل العرب الى عدنان أو قحطان ، وانما تسمع فيه فخراً بأسماء القبائل أو بأسمـاء الأحلاف الداخلة في عدنان أو في قحطان ، تسمع فيـه اسم (معد) أو اسم (يمن) أو (نزار) أو (مضر) أو غير ذلك ، ولا تسمع فيه اسم الجدّين

---

١ Muh. Stud. I, S. 91.

٢ Muh. Stud. I, S. 91.

الأكبرين المذكورين . فماذا يعني هذا ؟ وعلام يدل ؟

ويمن عند أهل الأنساب والأخبار وفي العرف ، كناية عن (قحطان) ، و (قحطان) عندهم أيضاً وفي العرف كناية عن (يمن) وعن الشعوب التي ترجع نسبها الى (يمن) . أما (معد) و (مضر) و (نزار) ، فكناية عن (عدنان) أو عن أحلاف من أحلاف عدنان .

وأنت اذا ما أردت أن ترسم حدوداً فاصلةً بين (قحطان) و (عدنان) ، أي بين (يمن) و (معد) ، فإنك تستطيع أن ترسمها بسهولة اذا ما اعتبرت (قحطان) كناية عن اليمن ، وان (عدنان) كناية عن (قريش) والقبائل التي ترجع نسبها الى نسب قريش . وحدود أرض قريش وحدود أرض اليمن معروفة واضحة . أما اذا أردت أن ترسم حدوداً فاصلة،وأن تضع معالم واضحة بيّنة بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية ، استناداً الى روايات أهل الأنساب والأخبار والى الشجرات التي رسموها لأنساب العرب طرّاً ، فإنك ستخفق حتماً ، وسيخيب عملك من غير شك . ذلك لأن أهـل الأنساب لم يسيروا في تقسيمهم العرب على وفق قواعد ثابتة وأسس واضحة مرسومة ، مثل اختلاف في ملامح جسمانية ، أو تمايز في أمور عقلية أو نفسية أو لغوية ، أو اختلاف في مواقع جغرافية ، بل ساروا وفقاً للعرف والشائع ، فسجلوا الأنساب على وفق الشائع بين الناس عن النسب في ذلك العهد .

وأنت اذا أردت تطبيق ما عندك من علم في (الأثنولوجيا) وفي(الأنثروبولوجي) وفي العلوم المشابهة الأخرى ، على التقسيم الثنائي للعرب ، فستجد نفسك حائراً تائهاً لا مجال لقواعد علمك في هذا المكان . فبين القبائل التي تنتمي الى(قحطان) مثلاً تباين كبير في الملامح وفي العقلية وفي اللغة ، ويجعل من غير الممكن تصور وجود وحدة دموية تجمع شمل هذه القبائل،وجدّ واحد انحدر من صلبه هؤلاء ، وبين القبائل العدنانية اختلاف كذلك في الملامح وفي اللغة ، يضطرك الى القول بفساد نظرية النسابين في أصل هذه القبائل . ولا بد عندئذ من اعتبار هذا النسب رمزاً أخذ من صراع قديم ، أو من أحلاف قديمة ، فصير جدّين لجماعتين .

وكيف تتمكن من اقناع الباحث الحديث في العلوم المذكورة بوجود وحدة في الملامح الجسمية وفي الصفات العقلية ، ووحدة في اللسان بين القبائل القحطانيـة الجنوبية ، الضاربة في اليمن وفي بقية العربية الجنوبيـة وبين القبائل القحطانيـة

الشمالية ، مثل غسان ولخم وكلب وكندة وغيرها ، على حين يرى بين الجماعتين فروقاً واضحة بيّنة في كل شيء . حتى انه يستطيع أن يشير الى القحطاني الجنوبي حالاً عند رؤيته له ، على حين لا يستطيع أن يميز القحطاني الشمالي من العدناني ، ولا أن يعرفه الا بالاستفسار منه . الصحيح اننا اذا أخذنا بالملامح وبالأمور الأخرى المذكورة،خلصنا الى نتيجة تقول لنا ان الفروق بين القحطانيين والعدنانيين هي أقل جداً من الفروق التي نراها بين القحطانيين الشماليين والقحطانيين الجنوبيين . وهي نتيجة ليست في مصلحة أهل الأنساب بالطبع،تبين لنا ان قضية قحطان وعدنان قضية اعتبارية لا غير .

بل خذ القحطانيين الجنوبيين ، وهم لبّ القحطانية ومادتها ، ترَ ان القحطاني الساكن على السواحل الجنوبية يختلف في سحنته عن القحطاني الساكن في المرتفعات والهضاب ، والجبال . وان الساكن على السواحل المقابلة للسواحل الافريقية يختلف في ملامحه الجسمية عن الساكن على السواحل المقابلة للهند ، وان سكان حضرموت أو عمان أو مسقط يختلفون في الملامح والسحن عن اخوانهم القحطانيين الساكنين في اليمن وفي نجران وفي الأقسام الجنوبية من المملكة العربية السعودية . فهل يكون هذا الاختلاف دليلاً على قحطانية بالمعنى الذي يزعمه أهل الأنساب ؟

ولقد ذهب بعض الباحثين في علم الأجناس البشرية (الأنتروبولوجي) (Anthropology) الى ان العرب الجنوبيين هم من أصل حامي ، وان وطنهم الأصلي هو افريقية [1] . وقد ذهب بعض آخر الى وجود شبه كبير في الملامح وفي الخصائص البشرية بين العرب الجنوبيين والقبائل الإفريقية الساكنة على الساحل الإفريقي من البحر الأحمر والصومال ، الا انه نسب ذلك الى ان تلك القبائل كانت عربية في الأصل ، هاجرت من جزيرة العرب عن طريق باب المندب الى افريقية ، فسكنت هناك . ومن ثم وقع هذا التشابه . بين تلك القبائل والعرب الجنوبيين [2] .

---

١ R. Poech, Berichte des Forschungsinstitutes fuer Osten und Orient, II, Wien, 1918, 19. ff. V. Giuffrida-ruggeri, Affinita Antropologiche fra Etiopici e Arabi Meridionali, Annuario del R. Instituto Orientale di Napoli, 1919-20, A. Grohmann, Arabien, S. 9.

٢ Les Antiquités du Yemen, Muséon, 61, 1948, 225. ff.

ورأى آخرون أن العربية الجنوبية هي مزيج من الأجناس البشرية واضح المعالم، وذلك منذ أقدم أيامها . فنرى فيها قبائل تشبه جماعة (الفيديد) (Weddid) الهندية ، وهي من السلالات الهندية القديمة ، يسكن بعضها في أرض (سيبان) و (معارة) من حضرموت ، ونرى فيها عناصر مما يطلق عليها اسم (الجنس الشرقي) (Orientalide Rasse) ، وهو الجنس الذي يكثر وجوده بين العرب الشماليين، وعناصر أخرى تمثل انسان حوض البحر المتوسط (Mediterranen Rasse) أو الأجناس الأوروبية ، حيث وجد بعض السياح بين بعض قبائل اليمن جماعة من الناس لها عيون زرق وشعر أشقر وبشرة بيضاء أو تميل الى البياض وملامح أوروبية بينة ، وتتراوح نسبة هؤلاء بين ٨ الى ١٢ بالمئة[١] .

ووجد الباحثون بين قبائل العربية الجنوبية، جماعات لها ملامح آشورية وجماعات ذات ملامح تشبه ملامح سكان آسية الصغرى ، وجماعات ذات ملامح افريقية . وقد وجد الدكتور (سليمان أحمد حزبن) أن بين أهل شمال اليمن وبين أهل جنوب اليمن الى المحيط اختلافات بارزة في الملامح وفي المظاهر الجسمية يخرجنا البحث عنها هنا من حدود التأريخ العام[٢] . ووجد غيره مثل ذلك . كما وجد هذا الاختلاط بارزاً في بقايا الهياكل البشرية القديمة التي عثر عليها في العاديات .

وما هذه المظاهر والملامح التي رأيناها من الجماجم وبقية الهياكل البشرية ومن أشكال التماثيل والصور ، ومن دراسات الباحثين (الأنتروبولوجيين) للقبائل الحاضرة ، الا حكاية واضحة صريحة عن عملية امتزاج أجناس بشرية متعددة في العربية الجنوبية ، بسبب الهجرات والحروب والاتصال البحري والتجارة وعوامل أخرى ، ونجد مثل ذلك بالطبع بين من نسميهم بالعرب الشماليين . وسوف نرى ان الدول القديمة كانت تنقل البشر نقلاً من مناطق الى مناطق فتزرعهم فيها ، وان أكثر أفراد الجيوش التي كانت ترسل لمحاربة القبائل أو للتوسع في الجزيرة كانت تبقى وتستقر في المواضع التي ترسل اليها ، فتتطبع بطباع من نزلت بينهم، وتكون في النهاية منهم ، أضف الى ذلك الرقيق .

---

١ A. Grohmann, Arabien, S. II.

٢ بعثة جامعة فؤاد الاول سنة (١٩٣٦ م) .

وقد ذكر ان جماعة من (بني الحارث بن كعب) وفدت على الرسول ، فنظر اليهم ، فقال : « من هؤلاء الذين كأنهم من الهنـــد ؟ » . وقد كان (قيس بن عمرو) الشاعر المعروف بـ (النجاشي) من هؤلاء[1] . وسواء أكان ما نسب الى الرسول من قوله المذكور صحيحاً أم موضوعاً ، فإن الأخبار تذكر ان بشرة (بني الحارث بن كعب) ، كانت تميل الى السمرة الشديدة ، بل الى السواد الذي يشبه سواد بشرة الإفريقيين ، أفلا يجوز أن يكون أصلهم من افريقية ؟. وقد عرفت جماعة كبيرة من أهل مكة بالأحابيش ، لأن أصلهم من رقيق الحبشة والسواحل الإفريقية المقابلة لجزيرة العرب ؟

فدعوى وجود جنس (أنتروبولوجي) واحد أو جنسين منفصلين ، لكـــل منهما خصائص جسمية وملامح (فسيولوجية) معينة للعرب ، وبالمعنى العلمـــي المفهوم اليوم عند علماء الأجناس ، هي دعوى غير مقبولة ، لأن البحوث العلمية والمختبرية لا تؤيدها ولا تثبتها ، ولأن البحوث التأريخية الحديثة تعارضها أيضاً، وكل ما نقوله هو أن ما نسميه اليوم بالجنس هو جنسية ثقافية فكرية، لا جنسية دموية تقوم على وحدة الملامح والمظهر والدم .

فما يذكره أهل الأنساب عن النسبين ، وما يتصوره بعض الناس من صفـاء الجنس العربي صفاءً تاماً ونقائه من كل دم غريب ، دعوى لا يمكن الاطمئنان اليها في هذا اليوم . لن يضير العرب قول مثل هذا ، فصفاء الأجناس البشرية صفاءً تاماً ، من القضايا التي عجز حتى القائلون بنظرية العنصريات مثل النازيين عن اثباتها في هذا اليوم . وسيظهر ضعفها في المستقبـــل ظهوراً أوضح مما هو عليه الآن .

لقد كان (نولدكه) أول من شك من المستشرقين في هذا النسب العام الذي وضعه أصحاب الأنساب للعرب ، وكان أول من نبه على أثر اليمانيين في وضعه وفي محاولتهم رجعه الى عهود قديمة قبل الإسلام[2] . وذهب (هاليفي) الى أبعد من ذلك،فرأى ان كل ما قيل في هجرة القبائل اليمانية الى الشمال هو أسطورة ،

---

١ البيان (٢٣٩/١) ، الاصابة (٨٥٨) ، الخزانة (١١٣/١) .

٢ Muh. Stud. Bd. I, S. 92, Noeldeke, in ZDMG. XL.

وان ما يزعم من انتساب تلك القبائل الى اليمن هو حديث خرافة لا يركن اليه[1] .

ونحا مستشرقون آخرون هذا المنحى ، فرأوا ان للنسابين يداً في ترتيب هذه الشجرة العظيمة للأنساب،أو الشجرتين بتعبير أصح : شجرة نسب أبناء قحطان ، وشجرة نسب أبناء عدنان . ولذلك فهم لا يطمئنون اليها ، ولا يصدقون بكثير من هذه الأنساب المروية وبالأخبار والروايات الواردة في هجرة القبائل القحطانية نحو الشمال[2] .

اذن ، فقحطان ليس بجدّ لكل القبائل القحطانية المعروفة ، وعدنان لم يكن جداً لجميع القبائل العدنانية ، وانما هما كنايتان عن مجموعة قبائل ، تدعى عند العرب (بالحلف) ، وقد أخذ أهل النسب قحطانهم من التوراة ، وهو هناك كناية عن مجموعة قبائل مواطنها في العربية الجنوبية . أما (عدنان) فلم يرد اسمه في التوراة ، ولا نعرف من أمره شيئاً في الزمن الحاضر ، والظاهر انه كناية عن حلف ، ويظهر انه ظهر للوجود قبيل الإسلام . وعدم وقوفنا على أخباره ، لا يسوغ لنا نكران وجوده، فلعل الأيام تكشف لنا عن كتابات نرى فيها اسمه ، كما حدث بالنسبة الى أسماء أخرى شك في أصلها بعض المستشرقين، ثم تبين انها كانت معروفة ، بدليل ورودها في بعض كتابات الجاهليين .

ولا أعتقد ان التوراة ابتدعت فكرة (يقطان) ونسل يقطان ، اذ لا يعقل تصور ذلك . والذي أراه انها حكت نسباً كان يجمع شمل القبائل العربية المذكورة عند العرب ، وصل خبره الى العبرانيين فسجله كتبة التوراة في الأسفار ، مع أنساب الشعوب . كما انها أخذت من العرب أيضاً نسب (الإسماعيليين) على نحو ما كان معروفاً يومئذ ، وكذلك نسب أبناء (قطورة) . فتكون التوراة قد ذكرت أنساب ثلاث مجموعات أو أحلاف عربية كبيرة ، كانت قائمة في ذلك الزمن .

وقد يكون من الخير الاتيان بأمثلة من أيام الإسلام ، تساعدنا في شرح موضوع النسب عند الجاهليين وتفسيره . فإن الزمن وان تغير وتبدل في الإسلام

---

١ Muh. Stud. Bd. I, S. 92, Halévy, in Journal Asiatique, 1882, II, 490, and Compte Rendu de VI, International Orientalisten Congress, Leiden, 1884, P. 102.

٢ Nicholson, A Literary History of the Arabs P. XX, L. Della Vida, Pre-Islamic Arabia, in Arab Heritage, 50, Robertson Smith, Kinschip, P. 6.

وتباعد عن الجاهلية ، الا أن الأفكار القبلية بقيت هي هي عند تلك القبائل بالنسبة الى النسب وتكوين الأحلاف . فقبيل ظهور الإسلام كان بين (يثرب) و (مكة) نزاع شديد . ولما هاجر الرسول الى (يثرب) عرف أتباعه الذين تبعوه بالمهاجرين. وقد دامت الهجرة الى عام الفتح : (فتح مكة)[1] . وأما أهل المدينة الذين آووا الرسول ونصروه ، فقد عرفوا بالأنصار لانتصارهم للرسول ولتقديم مساعداتهم له وللمسلمين . وللقضاء على الخصومة ، آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين . غير أن العداء عاد فتجدد بين الأنصار والمهاجرين ، بعد وفاة الرسول ، ويظهر أثره في شعر حسان بن ثابت والنعمان بن بشير[2] والطرمّاح بن حكيم ، وهم شعراء يثرب وألسنتها ، وفي الأشعار الأخرى التي جمعت في دواوين الأنصار[3] .

وقد صيّر النزاع المذكور لفظة (الأنصار) علماً خاصاً على أهل المدينة ، حتى كادت تكون نسباً ، واصطبغت الدعوة بصبغة يمانية ، فنجد في شعر الأنصار فخراً باليمن ، واعتزازاً بأصلهم اليماني ، ومجاهرة بأنهم يمانيون صرحاء وبأنهم من أقرباء الغساسنة ومن ذوي رحمهم . كما انهم استعملوا لفظة الأنصار مقابل قريش[4] ومعدّ[5] ومضر[6] ونزار[7] ، وأطلقوا على لسانهم حسان بن ثابت شاعر الأنصار ، وشاعر اليمن ، وشاعر أهل القرى[8] .

---

١ (فلما فتحت مكة ، صارت دار سلام كالمدينة ، وانقطعت الهجرة . وفي الحديث : لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية) ، اللسان (١١١/٧) ، المؤتلف (ص ١٢٦)

٢ الاغاني (١٤٢/١٣) ، (١١٤/١٤ فما بعدها) .

٣ (كان نهيك بن اساف يهاجي ابا الخضراء الاشهلي في الجاهلية ، واشعارهم موجودة في اشعار الانصار) ، الاغاني (١١٧/٢٠) .

٤ ذهبت قريش بالمكارم والعلا ... واللؤم تحت عمائم الانصار
الاغاني (١٤٢/١٣) .

٥ وقال الله قد يسرت جندا ... هم الانصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد ... قتال او سباب او هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
ديوان حسان (ص أ) (تحقيق هرشفلد) ، شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص٦) (سباب او قتال) .

٦ ونحن جندك يوم النعف من احد ... اذ حزبت بطرا اشياعها مضر
ديوان حسان (ص ٥٧) ، شرح ديوان حسان (ص ٢٠٠) (للبرقوقي) .

٧ Muh. Stud. Bd. I, S. 94, ZDMG. XVIII, S. 239.

٨ مجالس ثعلب ، القسم الثاني ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، سنة ١٩٤٩ (ص ٤٢٩) .

ونجد في أيام معاوية وفي ايام ابنه يزيد قصصاً عن هذا النزاع اليثربي المكي ، النزاع الذي سمي بنزاع الأنصار مع المهاجرين ، أو نزاع الأنصار مع قريش ، ويلاحظ ان هذا القصص لم يستعمل لفظة (مهاجرين) في مقابل (الأنصار) الا نادراً ، انما استعمل الألفاظ المذكورة . وقد عرفت وفودهم فيه بـ (وفود الأنصار) أو (الأنصار)[1] . فصارت تلك اللفظة وكأنها نسب أو علم من أعلام القبائل ، حتى تضايق من ذلك رجال قريش . قيل بينما كان (عمرو بن العاص) عند (معاوية) يوماً ، اذ دخل عليه حاجبه يقول : « الأنصار بالباب » ، فتضايق من ذلك عمرو ، وقال : « ما هذا اللقب الذي قد جعلوه نسباً ؟ أرددهم الى نسبهم » . فقال له معاوية : ان علينا في ذلك شناعةً . قال : وما في ذلك ؟ انما هي كلمة مكان كلمة ، ولا مرد لها . فقال معاوية لحاجبه : أخرج،فنادِ : مَنْ كان بالباب من ولد عمرو بن عامر، فليدخل . فخرج ، فنادى بذلك ، فدخل من كان هناك منهم سوى الأنصار ، فقال له : أخرج ، فنادِ : مَن هنا من الأوس والخزرج ، فليدخل . فخرج فنادى ذلك ، فوثب النعمان بن بشير ، فأنشأ يقول :

يا سعد ، لا تعد الدعاء ، فما لنا نسب نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيره الإلـه لقومنا أثقل به نسباً الى الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكم يوم القليب همُ وقود النار

وقام مغضباً . فبعث معاوية ، فرده ، وترضاه وقضى حوائجه وحوائج من كان معه من الأنصار[2] . وكان النعمان بن بشير حامل لواء الأنصار قد غضب في مجلس من مجالسه مع معاوية ، ولاحظ معاوية عليه الغضب فضاحكه طويلاً ، ثم قال له : « إن قوماً أولهم غسان ، وآخرهم الأنصار ، لكرام »[3] . وكان أهل يثرب يلحقون نسبهم بنسب غسان،ويرجعون نسبهم ونسب غسان الى الأزد. ونسب الأزد الى اليمن .

---

١ (وفد الانصار) ، الاغاني (١٤٢/١٣) .
٢ الاغاني (١٢٠/١٤ ، ١٢٢) .
٣ الاغاني (١١٩/١٤) .

لقد كان من المعقول استعمال لفظة (المهاجرين) في مقابل (الأنصار) ، الا أن الجانبين لم يستعملاها الا قليلاً ، وانما استعملا لفظتي قريش ومعد ، كما استعملا (قريشاً) في مقابل (يمن) . وقد افتخرت قريش بمعد ، وبالنبوة . فأجابهم الأنصار بأن أم الرسول من بني النجار أخوال النبي ، وهم من المدينة ، وبأنهم كانوا أول من آمن به ونصره ، وبأن المتنبيين كانوا من قبائل معد[1] .

ولو كتب لمصطلح (الأنصار) بالبقاء ، ولو كان عهد التدوين بعيداً عنه ، لصار ولا شك نسباً من الأنساب ، ولصارت اللفظة اسم أب لقبيلة ، كما صارت الألفاظ المذكورة التي خلدت لأنها الألفاظ الجاهلية ، فلما صار التدوين ، كان الناس يتداولونها على أنها أنساب وأسماء .

واستعملت لفظة (اليمانية) في مقابل (النزاريـــة) ، في العصر الأموي . ويظهر انها تغلبت على لفظة (الأنصار) وقضت عليها . وهي تعني القبائل التي ترجع أنسابها الى اليمن . أما (النزارية) فقد عنت كل القبائل العدنانية[2] .

وقد كان بين الحزبين نزاع شديد . ولكل شيعة نسابون ومدافعون ومهاجمون. وقد أثر هذا النزاع تأثيراً خطيراً في وضع الأنساب[3] .

ويرجع بعض الباحثين انقسام العرب الى قحطانيين وعدنانيين الى هذا النزاع: نزاع (يثرب) ومكة قبل الإسلام ، ويرجعه آخرون الى التنازع الطبيعي الذي هو بين البداوة والحضارة . فقد كان أهل يثرب أي اليمن كما يقولون أصحاب حضارة وملك . أما أهل مكة ومن والاهم ، فقد كانوا أعراباً أو شبه أعراب. ومن هنا اختلفت طبيعة أهل يثرب عن طبيعة أهل مكة ، ووقع النزاع والتنافس بين الجماعتين ، وتحول الى نسبين . وزعموا ان هذا النزاع هو نزاع الحضارة مع البداوة ، نزاع أهل المدر مع أهل الوبر ، نزاع (بني مدراء)[4] ، أو (أهل القارية) كما يقال لهم أيضاً ، لأنهم (قارون) أي سكان القرية والقرى مع أهل البادية أي البادون نزلة البادية . قالوا : ومن هنا قيـــل : الحضر خلاف

---

١ Muh. Stud. Bd. I, S. 96.
٢ التنبيه (ص ٦٩) .
٣ التنبيه (ص ٧٢) .
٤ اللسان (١٣٣/٧) ، الاغاني (١٤٥/١٢) .

البدو ، والحاضر خلاف البادي ، و (أهل الحاضرة) و (أهل البادية) و (الحاضرة) ، خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف[1] ، وهو تقسيم ، يرونه ، قديماً ، يرجع الى الجاهلية . روي أن الرسول قال ، حين وفد عليه قيس بن عاصم : « هذا سيد أهل الوبر »[2] . ونجد مثل ذلك في النصوص اليمانية الجاهلية ، اذ أشارت الى الأعراب كطبقة خاصة قائمة بنفسها ، تمتاز عن الحضر المستقرين .

ومن ثم كانت غالبية القبائل العدنانية التي يذكر أهل الأخبار أسماءها قبائل أعرابية ، أي قبائل بدوية ، أو قبائل غلبت البداوة عليها ، وغالبية القحطانية قبائل مستقرة أو قبائل شبه حاضرة تنخت في أماكن ثابتة ومالت الى حياة الحضارة . ولما كان الحضر أرقى فكرياً من أهل الوبر ، صارت اليهم السيادة في الغالب ، فتحكموا في القبائل العدنانية ، وملكوا القبائل المعدية . فحكم المناذرة والغساسنة وآل كندة وغيرهم ممن يرجع نسبه النسابون الى قحطان ، قبائل عدنانية ، ولم يحكم العدنانيون القحطانيين قبل الإسلام .

هذا هو رأي من يرى أن القحطانية والعدنانية كناية عن الحضارة والبداوة ، وتعبير عن أهل المدر وأهل الحضر . يستدلون على رأيهم هذا بما قلته من غلبة الحياة الحضرية والاستقرار على القبائل التي يرجع النسابون نسبها الى قحطان ، وغلبة البداوة أو شبه البداوة على القبائل العدنانية .

وللحكم على هذه النظرية ، يجب تكوين جدول بأسماء القبائل الجاهلية العدنانية منها والقحطانية ، ودراسة أحوالها الاجتماعية والمواضع التي عاشت فيها في مختلف الأزمنة ، وعند ذلك نستطيع الحكم على ما فيها من قوة أو ضعف ، فإن في القحطانيين قبائل متبدية ، وفي العدنانيين قبائل مستوطنة وأصحاب قرى . ولهذا لن تصدق تلك النظرية الا بمثل هذه الدراسة .

ولفهم النزاع القحطاني العدناني ، أو نزاع يثرب ومكة ، لا بد من البحث عن موارد جاهلية واسلامية نستعين بها على فهم طبيعة هذا النزاع . أما الموارد

---

١ اللسان (٣٨/٢٠) ، فجر الاسلام ، (٧/١)
Sprenger, Das Leben, Bd., 3, S. CXXVIII

٢ معجم الشعراء (ص ٣٢٤) .

الجاهلية،أي الكتابات ، فليس فيها حتى الساعة شيء ما يحدثنا عن هذا النزاع، وأما الموارد الإسلامية ، فإن شعر حسان بن ثابت ، أو الشعر المنسوب الى هذا الشاعر بتعبير أصدق وأصح،هو المرجع الأول الذي يحدثنا عن طبيعة هذا النزاع أو التحاسد الذي كان بين مكة ويثرب قبل ظهور الإسلام وعند ظهوره،اذ كان حسان نفسه من المناضلين فيه الحاملين للواء يثرب في نزاعها مع مكة . ونرى القحطانيين يروون شعره ويذكرونه في افتخارهم على العدنانيين . وقد حمل شعره جلّ مواضع فخر قحطان على عدنان ، ومفاخر أهل يثرب على أهل مكة ، حتى لنستطيع أن نقول انه أحد بناة النزاع القحطاني العدناني ، باعتبار انه أقدم مشارك فيه يصل خبره الينا ، وأن أكثر ما تذكره القحطانية من دعاوى مركزة في شعر هذا الشاعر مذكورة فيه .

وقد وصل جلّ شعر حسان الينا،وطبع في ديوان . راجعناه وراجعنا ما يحمل من شعر ، فلم نجد فيه ذكراً لعدنان ، وانما نجد فيه اسمي (قحطان) و(معد)[1] . ولم يرد فيه اسم الأول الا مرة واحدة في قوله :

فلو سُئِلَتْ عنه معد بأسرها وقحطان أو باقي بقية جرهما[2]

وأما اسم الثاني ، أي (معد) ، فقد ورد في مواضع بلغت سبعاً في الديوان[3] .

غير اننا نرى في الجزء الأول من (الإكليل) ، أبيات شعر نسبها (الهمداني) لحسان ، ورد فيها ذكر لقحطان ، وفخر به ، وانتسب اليه :

لقد كان قحطان العلا القرم جدّنا له منصب في يافع الملك يشهر
ينال نجوم السعدِ ان مدّ كفه تفلّ أكف عند ذاك وتقصر
ورثنا سناءً منه برزاً ومحتداً منيف الذرى فخر الأرومة يذكر[4]

---

١ طبعة (هرشفلد) سنة ١٩١٠ بمدينة (لايدن) ، رواية السيرافي ، شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري ، للبرقوقي ، القاهرة ، ١٩٢٩ .
٢ ديوان حسان (ص ٤٤) ، البرقوقي (ص ٣٩٨) .
٣ ديوان حسان (ص ١ ، ٥ ، ٦ ، ٢٥ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٨٩)
٤ الاكليل (١١٨/١) .

ونرى أبياتاً أخرى من هذا النوع من الفخر، في مكان آخر من هذا الكتاب، نسبها أيضاً لهذا الشاعر ، هي هذه :

فنحن بنو قحطان والملك والعلا ومنّا نبيّ الله هود الأخاير
وإدريس ما ان كان في الناس مثله ولا مثل ذي القرنين أبناء عابر
وصالح والمرحوم يونس بعد ما ألات به حوت بأخلب زاخر
شعيب والياس وذو الكفل كلهم يمانون قد فازوا بطيب السرائر[1]

ونرى أبياتاً أخرى نسبها (الهمداني) الى (حسان) أيضاً ، فيها فخر بقحطان وبقوم الشاعر ، رواها على هذا النحو :

فمن يك عنّا معشر الأزد سائلاً فإنا بنو الغوث بن نبت بن مالك
ابن زيد[2] بن كهلان نما سبأ له الى يشجب فوق النجوم الشوابك
ويعرب ينميه لقحطان ينتمي لهود نبيّ الله فوق الحبائك
يمانون عاديون ، لم يلتبس بنا مناسب شابت من الى وأولئك[3]

والأبيات المذكورة ، لا يمكن أن تكون من نظم حسان ، فأسلوبها غير أسلوبه في شعره ، وفي بعضها ركة وضعف ، ولفظة (المرحوم) من الاصطلاحات الحادثة المتأخرة[4]، كما ان التفاخر بالأنبياء المذكورين لم يكن معروفاً على عهده .

وأما الشعر المبتدىء بهذا البيت :

فمن يك عنا معشر الأزد سائلاً فإنا بنو الغوث بن نبت بن مالك

ففيه اضافات لا نجدها في الديوان .

وفي المضاف اليه تباين ظاهر مع أسلوب حسان في شعره ، وركة بينة ، وطابع الصنعة ظاهر عليه . وقد ورد في ديوانه على هذا النحو :

---

١ الاكليل (١/٩٦) .
٢ الاكليل (١/١٠٦) هكذا : (ابن زيد) .
٣ الاكليل (١/١٠٦) .
٤ الفضل لاستاذي الاثري في تنبيهي الى هذه الملاحظة .

فإن تك[1] عنا معشر الأسد[2] سائلاً فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك
لزيد بن كهلان الذي نال عزّه قديماً دراري النجوم الشوابك
إذا القوم عدّوا مجدهم وفعالهم وأيامهم عنـد التقاء المناسك
وجدت لنا فضلاً يقر لنا به اذا ما فخرنا كل باق وهالك[3]

فأنت ترى أن الأبيات في الديوان خالية من نسب (سبأ) و (يشجب) و (يعرب) و (قحطان) و (هود) وغير ذلك ، وان أسلوب صياغة هذا النظم لا يمكن أن يكون من أسلوب شاعر جاهلي أو شاعر مخضرم ، بل لا بد أن يكون من نظم المتأخرين ، اضافه بعض المتعصبين لليمن الى شعر حسان ، ونظمه على وزن البيت الأول وطريقته ، ليكون أوقع في النفس ، ودليلاً على قدم ذلك النزاع .

ولا أعتقد ان هنالك حاجة تدعوني الى إلفات نظر القارىء الى أن الأبيات المتقدمة الواردة في ديوانه ، هي الأبيات المتقدمة عليها نفسها ، أي الأبيات التي أخذتها من كتاب الإكليل للهمداني رويت بشكل آخر ، بشكل يرينا أن الرواة مهما حاولوا اظهار انهم على حرص تام في المحافظة على أصالة الشعر والمحافظة على الأصل ، فإنهم لا يتمكنون من ذلك .

ونسب بعض الرواة اليه هذه الأبيات :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا ، فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما بكم غير عجمة كلام ، وكنتم كالبهائم في القفر[4]

وهي أبيات لم ترد في ديوانه ، تشعر ان (يعرب) ، وهو جد القحطانيين ، هو أول من أعرب في لسانه ، وأول من نطق بالعربية ، فهو أول متكلم بها ، وأول من أوجدها وكوّنها ، وان العدنانيين تعلموها من أبنائه ، بعد ان كان لسانهم لساناً أعجمياً . وأما من ناحية صحة نسبتها الى شاعر الإسلام وشاعـر

---

١ وفي الديوان : (من تك) ، (ص ٤٠) ، البرقوقي (ص ٢٩٥) .
٢ « الاسد » ، الاصح في نظري : « الازد » . كما في الابيات المتقدمة .
٣ ديوان حسان (ص ٤٠) ، البرقي (ص ٢٩٥) .
٤ الاكليل (١١٦/١) .

الأنصار ، فإن في أسلوب نظمها وفي صياغة البيت الأول وجملة (منطق الشيخ يعرب) ، ما فيه الكفاية لإظهار انها مصنوعة ، حملت عليه حملاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظم من نظم أول الإسلام،حتى وان كان من شاعر من شعراء أهل المدر في ذلك العهد .

وزعم ان حساناً ذكر القيل (ذو ثات) ، وهو من أقيال حمير ، فقال هذا البيت :

وفي هكر قد كان عز ومنعة وذو ثات قَيْلٌ ما يكلم قائله[1]

ولم يرد هذا البيت في ديوانه . أما أسلوب نظمه ، فينبئك ان قائله يجب أن يكون شخصاً آخر من المتأخرين عن حسان ، ممن كانوا يضعون الشعر على ألسنة غيرهم على نحو ما وضعوا على ألسنة التبابعة وآدم والجن .

هذا ولحسان شعر لم يرد في ديوانه ، بل ورد في موارد أخرى . منه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود ، لأنه متحول وقد حمل على حسان وألصق به ، ولم يغفل العلماء عنه ، بل أشاروا اليه ونبهوا ان بعض الناس قد تعمدوا وضعه وحمله عليه لمآرب[2] . قال الأصمعي في ذلك : « تنسب اليه أشياء لا تصح عنه. وهذا فيما يظهر صحيح ، وكثيراً ما رأيت في سيرة ابن هشام أبياتاً لحسان من هذا القبيل يعقبها صاحب السيرة بقوله : وأهل العلم ينفيها عن حسان »[3] . وقد نسب الجمحي الوضع على حسان الى بعض قريش للغض منه ، فقال : « وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد . لمّا تعاضهت قريش ، واستبّت ،وضعوا عليه أشعاراً كثيرة ، لا تليق به » . وقد كان ذلك لتعرضه بهم ، ولتعصبه المفرط ليثرب، وافتخاره بهم على قريش[4] .

هذا ومع إفراط (حسان) في التعصب ليثرب ، لا نراه يذكر قحطان الا

---

١ شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ٢٧١) .
٢ ديوان حسان : المقدمة الانكليزية (ص ٢ وما بعدها) ، (وقد قال الاصمعي في ذلك : تنسب اليه اشياء لا تصح عنه . وهذا فيما يظهر صحيح ، وكثيرا ما رايت في سيرة ابن هشام ابياتا لحسان من هذا القبيل يعقبها صاحب السيرة بقوله : واهل العلم ينفيها عن حسان ....) ، البرقوقي (ص غ) .
٣ المصدر المتقدم .
٤ طبقات الشعراء (ص ٥٢) .

مرة واحدة ، أما عدنان فلم يذكره في شعره قط . ولهذه الملاحظة أهمية كبيرة، لتكوين رأي في فكرة (قحطان) وعدنان في ذلك العهد ، اذ انها تدل على ان القحطانية والعدنانية لم تكن عنده على النحو الذي صارت عليه فيما بعد ، بعد اشتداد النزاع بين الأنصار وأهل مكة ومن حولها في خلافة بني أمية خصوصاً ، وهم عصب العدنانيين ، وانه في كل فخره بالنسب لم يتجاوز الأزد ، أبنـاء (الغوث بن زيد بن مالك بن زيد بن كهلان)[1] ، وغسان وآل نصر .

وأما بعد اسلامه ، فقد حوّل فخره وتباهيه الى فخر بالأنصار على قريش ومضر ومعد ، أي أهل مكة ، بنصرة قومه للإسلام ، وبنصر النبي حين خذلوه وقاوموه . فكانوا ملوك الناس قبل محمد ، فلما أتى الإسلام ، كان لهم النصر في نصرته[2] . ونجد هذا الفخر واضحاً قوياً في شعره ، فهو فخـر أهل يثرب على أهل مكة . فخر الأنصار على مضر ومعد وقريش ، فلم يصل الفخر بقومه عنده اذن الى حد الفخر بقحطان ، أو باليمن كلها على عدنان . وأما ما ورد منه أكثر من ذلك، كما نرى في الأبيات المنسوبة اليه في الجزء الأول من الإكليل، فإنه عندي من ذلك النوع المنحول الذي اضيف اليـه . فالتكلف ظاهر عليه ، والأسلوب مختلف عن أسلوبه ، وهو من النظم المتأخر عن ايام حسان، من نظم وضّاح يتكلف قول الشعر ولا يحسن صناعته .

خذ قصيدته التي تمثل منتهى فخره بقومه ، نره يقول :

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامر لنا شرف يعلو على كل مرتقي ؟
رسا في قرار الأرض، ثم سمت له فروع تسامى كل نجم محلّق
ملوك وأبناء الملوك ، كأننا سوارى نجومٍ طالعات بمشرق

الى أن يقول :

كجفنة والقمقام عمرو بن عامرٍ وأولاد ماء المزن وابني مُحرّق

---

١ من تك عنا معشر الازد سائـلا فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك
لزيد بن كهـلان الذي نـال عزه قديما ذراري النجـوم الشوابـك
ديوان حسان (ص ٤٠)

٢ وكنا ملوك الناس قبل محمـد فلما اتى الاسلام كان لنا الفضل
ديوان حسـان (ص ٧٠ ، ٧٣) .

وحارثة الغطريف أو كابن منذرٍ ومثل أبي قابوس ربّ الخورنق[1]

فلا تجد فخره بها يتعدى حدود الفخر بالأزد وبالغساسنة وآل نصر ، أي ملوك الحيرة . وهو ما وجدناه في أشعاره الأخرى . وقد عاب في هذه القصيدة (قيساً) و (خندفاً) لأنهما قاومتا الرسول وآذتاه . مما يدل على أن هذين الاسمين كانا معروفين قبل الإسلام .

هذا ، وقد أضاف أهل الأخبار الى قصيدة حسان التي مدح فيها الملك (جبلة بن الأيهم) ، ومطلعها :

لمن الدار أقفرت بمغان بين أعلى اليرموك والصمان[2]

هذا البيت :

أشهرنها فإن ملكك بالشا م الى الروم فخر كل يماني[3]

ولم يرد ذكر هذا البيت في الديوان . وهو بيت يتحدث كما ترى عن فخر باليمن : أصل الغساسنة ، وأهل يثرب ، وكل قحطان . وأغلب ظني انه من الأبيات المدسوسة ، وضعه أحد المتعصبين لليمن ودسّه في القصيدة .

هذا وقد نسب الى النعمان بن بشير الأنصاري شعر قيل انه قاله في هذا الباب. ونسب الى الطرماح بن حكيم مثل ذلك ، وهو أيضاً شاعر من شعراء الأنصار[4]. وعلينا أن ندرس شعرهما ، وشعر أمثالهما ، وشعر شعراء قريش أيضاً دراسة نقد وتمحيص نميز بها بين صحيحه وفاسده ، لنتمكن بذلك من تكوين رأي علمي صحيح في القحطانية والعدنانية وتأريخ ظهورهما . ولو تيسر لنا ديوان الأنصار أو دواوين الأنصار ، لزادت معارفنا ، ولا شك ، في هذا الباب وتمكنا من تكوين رأي في تلك العصبية القبلية بصورة أصح وأدق ولا شك .

---

١ البرقوقي (ص ٢٨٨) .

٢ مروج الذهب (٢/٣١) (تحقيق محمد محيي الدين) . ونجد هنا اختلافا في الالفاظ وفي بعض الجمل عن نص القصيدة الوارد في الديوان ، راجع (ص ٥٥) من الطبعة الاوروبية ، و (ص ٤١٤) من (شرح ديوان حسان بن ثابت) لعبد الرحمن البرقوقي . وقد اخذت مطلع القصيدة من رواية المسعودي .

٣ مروج الذهب (٢ / ٣١) .

٤ فمنا سراة الناس هود وصالح وذو الكفل منا والملوك الاعاظم
الاكليل (١/٩٤) .

لقد حارب الإسلام العصبية الجاهلية ، وآخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، وحالف بين قريش وأهل يثرب ، ونهى عن أحلاف الجاهلية ، وروي عنه أنه قال : (لا حلف في الإسلام)[1] ، لما ينتج عنه من فتن ومن قتال بين القبائل وغارات ، ولأن الإسلام قد عوّض عن الحلف ، وزاده شدة بنزوله . (وما كان من حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة)[2] . وعدّ (التعرب) بعد الهجرة ، أي أن يعود المرء الى البادية ويقيم مع الأعراب ، كبيرة من الكبائر ، حتى عدّ من يعود الى موضعه من البادية بعد الهجرة كالمرتد[3] . ومع ذلك ، لم يكن من الممكن تناسي العصبيات ، وغسل آثار الجاهلية ، وطمس معالمها تماماً ، فتحزبت القبائل وتكتلت ، وكانت تحارب على أنها همدان[4] ، أو ربيعة[5] ، أو طيء[6] ، أو مضر[7] ، أو قريش[8] ، أو قيس[9] ، أو الأزد ، أو ربيعة[10] ، أو تميم[11] ، أو غير ذلك من أسماء قبائل .

القحطانية والعدنانية في الاسلام :

الحق ان ما نسميه قحطانية أو عدنانية انما هو صفحة من صفحات النزاع الحزبي عند العرب في الإسلام ، شاء أصحابه ومثيروه رجعه الى الماضي البعيد ، ووضع تأريخ قديم له ، فجعلوا له أصولاً زعموا أنها ترجع الى ما قبل الإسلام

---

١ تفسير الطبري (٣٦/٥)
٢ تفسير الطبري (٣٦/٥) .
٣ (وفي الحديث : ثلاث من الكبائر ، منها التعرب بعد الهجرة ، هو ان يعود الى البادية ويقيم مع الاعراب بعد ان كان مهاجرا . وكان من رجع بعد الهجرة الى موضعه ، من غير عذر ، يعدونه كالمرتد) ، لسان العرب (٧٦/٢)
٤ مروج (٢٢/٢) .
٥ مروج (٢٢/٢) .
٦ مروج (٢٢/٢) .
٧ اليعقوبي (١٦٥/٢) ، الكامل (٨٥/٤)
٨ اليعقوبي (٣/٣) ، الكامل (٦١/٣) .
٩ الكامل (١٤/٤ ، ٦٣) .
١٠ الكامل (٥٨/٤) .
١١ الكامل (٥٨/٤) .

بكثير ، ورووا في ذلك شعراً لا يخرج في نظرنا عن هذا الشعر الـذي يحفظه الرواة على لسان آدم وهابيل وقابيل والجن .

وفي هذا الصراع القحطاني العدناني العنيف شرع في تدوين الأنساب وتثبيتها في القراطيس والكتب. فكان لهذا الصراع ولوضع القبائل وتكتلاتها في هذا الوقت أثر خطير في تثبيت أنساب القبائل وتسجيلها ، ليس في هذا العهد فقط، بل في تثبيت أنساب قبائل الجاهلية وتسجيلها أيضاً . اذ سجلت هذه الأنساب : جاهلية واسلامية على الرأي السائد في النسب يوم شرع في التسجيـل والتدوين ، أي في أوج هذه العصبية العنيفة التي عمت النـاس في صدر الإسلام . ومن هنا كان لا بد لفهم الفكرة القحطانية العدنانية من الإلمام بنزاع قحطان وعدنان في الإسلام .

والذين قاموا بتسجيل الأنساب وتدوينها وتثبيتها في الكتب، كانوا هم أنفسهم من أصحاب العصبية لنزار أو لليمن ومن المتأثرين بالأحوال السياسية لذلك العهد. ولهذا نجد في أقوال بعضهم تحزباً وتطرفاً وميلاً الى تأييد فريق على فريق . ومن هنا كان لا بد لنا من التنبه لهذه العصبية، واتخاذ الحيطة والحذر عند دراسة هذا النزاع القحطاني العدناني .

وقد استعملت في هذا العهد (مضر) في مقابل (الأزد)[1] ، كما استعملت الأزد في مقابل تميم ، وورد (أهل اليمن) أو اليمانية[2] . ولكننا قلما نسمع في نداء القبائل وأخبار هذه الفتن أو الحروب التي وقعت في هذا العهد استعمال كلمة (عدنان) في مقابل (قحطان) ، ويقال مثل ذلك في الأشعار أيضاً، في مثل شعر (الفرزدق) الذي استعمل كلمة (قحطان) في مقابـل كلمة (نزار) وكلمة (يمن) في مقابل (نزار) أو (الأزد) في مقابل (نزار)[3] . كما استعمل الحكم بن عبدل (قحطان) في مقابل (معد)[4] . وقد ذكر الأعشى

---

١ الكامل (٥٨/٤) .

٢ الكامل (٦١/٤) .

٣ ديوان الفرزدق « طبعة بوشيه » Boucher « ص ٨ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٨٦ » . Muh. Stud. Bd. I, S. 98.

٤ فما صادفت في قحطـان مثلـي كمـا صادفـت مثلك في معـد الاغاني (١٤٨/٢) .

في شعر له : (ومن معدّ قد أتى ابن عدنان) ، وذلك في مقابل (قحطان)[1].

وفي أيام معاوية وابنـــه (يزيد) و (مروان بن الحكم) ، نالت (كلب) مركزاً سامياً ، لتزوج معاوية امرأة من كلب ، هي (ميسون بنت بحدل) ، فأصبحت هي والقبائل التي تؤيدها مقربة عند الخلفاء ، مع أن الخلفاء من قريش ، وقريش من قيس . وهذا مما أغضب قيساً المعروفة بعدائها لكلب . وقد كانت لفظة (قيس) في هذا العهد ترادف كلمة (معد) و (مضر) و (نزار)[2] . وأما (كلب) ، فترادفه اليمن .وقد عرفت المعركة التي وقعت في (مرج راهط) بين مروان وابن الزبير بأنها معركة (قيس) و (كلب) لأن قيساً حاربت فيها عن (ابن الزبير) . أما كلب ، فقاتلت عن مروان ، وقد أوجد هذا الانتصار حقداً كبيراً بين (قيس) وحلفائها من القبائل ، وبين كلب وأنصارها من القبائل التي أدعت أنهـــا من اليمن ، فوقعت حروب بين قيس وكلب هلك فيها خلق كثير من الفريقين[3] . ولعب دوراً مهماً في تكتل القبـــائل وفي تجمع القحطانيين والعدنانيين .

وقد أسهم الخلفاء الذين جاؤوا بعد (عبد الملك) ، ويا للأسف ، في هذا النزاع ، متأثرين بعاطفتهم وبدمهم من الأمهات ، فكان بعضهم يؤيـد القيسيين اذا كانت أمهم من قيس ، وكان آخرون يؤيدون (كلباً) إذا كانت أمهم من اليمن . وسار على هـــذه السياسة الولاة والعمال ، فكانت النتيجة تكتل القبائل وانقسامها الى معسكرين (قيس) و (يمن) ، وتزعمت (أزدعمـــان) في البصرة وخراسان حزب (يمن) في مقابل (قيس) و (تميم)[4] .

ووقعت وقائع دموية بين يمن وقيس ، انهكت العرب جميعاً ، وصارت من جملة العوامل التي عجلت بسقوط الأمويين .

وحمل الشعراء مشاعل هذا النزاع ،وأمدّوا ناره بوقود غزير . نظموا القصائد في مدح قيس وفي ذم يمن وذم قيس بحسب قبيلة الشاعر ونسبه . ساهم فيـــه

---

١ سار بجمع كالقطا مـــن قحطان ومن معد قد اتـى ابن عدنـــان
الاغاني (٥/١٥١) .

٢ Enc. Vol. 2, P. 655.

٣ Enc. Vol. 2, P. 655, Werner Caskel, Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber, S. 13.

٤ Wellhausen, Das Arabische Reich und sein Sturtz, S. 40, Enc. Vol. 2, P. 655.

الأخطل والكُميت ودِعْبِل الخزاعي وجرير بن عطيـة بن الخَطَفَى التميمي واسحاق بن سويـد العَدَوي وغيرهم ، فكان مدح وكان ذم ، وكان تبـاه وافتخار ، وكان قدع وهجاء . وبدلاً من أن يتدخل الحكام ومسيرو الأمة في اخماد نار هـذه الفتنة واسكات الشعراء جمعاً للصف ، ساهموا هم أنفسهم كما قلت في هذه المعركة وشجعوا المحاربين فيها ، ففرقوا بين العرب بسياستهم هذه وأطمعوا الأعاجم فيهم ، وجعلوا العرب يقاتل بعضهم بعضاً ، وبـذلك توقفت الفتوحات العربية الإسلامية ، نتيجة لهذه السياسة المفرقة الخرقاء .

ولم يقف هذا النزاع على التباهي بقحطان وعدنان وبالأيام وبالشجعان ، بل تجاوز ذلك الى التباهي بارتباط كل فريق بجماعة من الأعاجم بروابط الدم والنسب والثقافة ، فافتخرت النزارية بالفرس على اليمانيـة ، وعدوهم من ولد (اسحاق ابن ابراهيم) وافتخروا بإبراهيم جدّ العرب والفرس . ونظم (جرير بن عطية ابن الخَطَفى التميمي) ، في ذلك شعراً ، جاء فيه :

أبونا خليل الله لا تنكرونه فأكرم بابراهيم جداً ومفخرا
وأبناء اسحاق الليوث اذا ارتدوا حمائل موت لابسين السّنّورا
اذا افتخروا عدّوا الصبهبذ منهم وكسرى وعدّوا الهرمزان وقيصرا
أبونا أبو اسحاق يجمع بيننا أب لا نبالي بعده من تأخرا
أبونا خليل الله ، والله ربنا رضينا بما أعطى الإلـه وقدرا [1]

ومن هذا القبيل ، قول اسحاق بن سويد العدوي :

اذا افتخرت قحطان يوماً بسؤدد أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا
ملكناهم بدءاً بإسحاق عمّنا وكانوا لنا عوناً على الدهر أعبدا
ويجمعنا والغـر أبناء فارس أب لا نبالي بعده من تفردا [2]

وقول بعض النزارية :

واسحـاق واسماعيـل مـدا معالى الفخر والحسب اللبابا
فوارس فـارس وبنو نزار كلا الفرعين قد كبرا وطابا [3]

---

١ التنبيـه (ص ٩٥) .
٢ التنبيـه (ص ٩٥) .
٣ التنبيـه (ص ٩٥) .

ولم يقف النزاريون عند هذا الحدّ ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن هذا النسب قديم ، وأن قرابة الفرس بالعدنانيين قديمة ، وأن الفرس كانت في سالف الدهر تقصد الى البيت الحرام بالنذور العظام تعظيماً لابراهيم الخليل بانيه ، وانه عندهم أجل الهياكل السبعة العظيمة والبيوت المشرفة في العالم ، وأن رجلاً تولاه وأعطاه العدة والبقاء ، واستشهدوا على صحة دعواهم بشعر زعموا أن قائله هو أحد شعراء الجاهلية :

زمزمت الفرس على زمزم وذاك في سالفهـا الأقدم[1]

وترتب على هذا وضع نسب للفرس يتصل بنسب العرب العدنانيين ، فزعموا أن (منوشهر) الذي ينتسب اليه الفرس هو (منشخر بن منشخرباغ) ، وهو (يعيش بن ويزك) ، و (ويزك) هو اسحاق بن ابراهيم الخليل ، واستشهدوا على زعمهم هذا بشعر ، قالوا ان بعض شعراء الفرس في الإسلام قاله مفتخراً :

أبونا ويزك وبه أسامي اذا افتخر المفاخر بالولاده
أبونا ويزك عبد رسول له شرف الرسالة والزهاده[2]

أما (يعيش بن ويزك) جد الفرس الجديد ، فهو (عيسو) (Esau) ، وفي العبرانية (Usu) ، ومعناها (مشعـر) أو (خشن) ، وهو شقيق يعقوب وجد الأدوميين في التوراة وابن إسحاق[3] . وأما (ويزك) فهو (يزك) أو (إيزك) (Isaac) (Icaak) وهو (إسحـاق) ، وهو في العبرانيـة (يصحق) (يصحك) (يصحاك) (Yishak) أي (الضحاك) . ويرى علماء التوراة ان الأصل اسم قبيلة كان يقال لها (يصحقيـل) (يصحق ال) (يضحاك ال) (Yishhakel) (Yishakil) ، وهو والد (عيسو) و (يعقوب)[4].

وقد أسهم بعض الفرس أنفسهم في اذاعة هذا النسب ونشره ، وقد استشهد على صحة دعواه بالأشعار المذكورة التي تفتخر بالفرس على اليمانية ، وانهم من

---

١ التنبيـه (ص ٩٥) .
٢ التنبيه (ص ٩٦) .
٣ Enc. Bibli. P. 1333, Budde, Urgeschi. S. 217, Hastings, P. 235.
٤ Enc. Bibli. P. 2175, Hastings, P. 386.

ولد أبيهم ابراهيم[1] . ولعلهم قالوا ذلك تقرباً الى الحكومة ، وهي عدنانية ، ولعوامل سياسية أخرى ، منها تقريب الفرس من العرب ، وضمان تعاونهم مع الخلافة في وجه النعرات القومية التي ظهرت في ايران .

ولم يكتف العدنانيون بقرابتهم للفرس وللاسرائيليين ، بل زعموا ان الأكراد من أقربائهم كذلك ، وانهم من نسل ربيعة بن نزار بن بكر بن وائل ، أو انهم من نسل ربيعة بن نزار بن معد ، أو انهم من نسل مضر بن نزار ، أو من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن ، وانهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع ودماء كانت بينهم وبين غسان ، وانهم اعتصموا بالجبال فحادوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم ، وصارت لغتهم أعجمية ، فذلك على رأي أهل الأخبار بدء نسب الأكراد[2] .

وقد لقي هذا النسب الجديد للأكراد تشجيعاً من بعض الأكراد في ايام العباسيين ، وربما في أيام أواخر الدولة الأموية كذلك ، فأيدوه وانقسموا أيضاً فرقاً في شجرات النسب ، فمنهم من أخذ بشجرة كرد بن مرد، ومنهم من أخذ بانتسابهم الى سبيع بن هوازن، ومنهم من انتسب الى ربيعة ثم الى بكر بن وائل[3] .

وكان من الطبيعي أن يجعل القحطانيون أعداء الفرس من ذوي أرحامهم، وهم اليونان فقالوا : إن يونان أخ لقحطان ، وإنه من ولد عابر بن شالخ ، وإنه خرج من أرض اليمن في جماعة من ولده وأهله ومن انضاف الى جملته حتى وافى أقاصي بلاد المغرب فأقام هناك ، وانسل في تلك الديار ، واستعجم لسانه ووازى من كان هناك في اللغة الأعجمية من الافرنجة ، فزالت نسبته ، وانقطع نسبه وصار منسياً في ديار اليمن . وقالوا أيضاً إن الاسكندر من تبع[4] . وكان من الطبيعي انزعاج العدنانيين من ربط نسب قحطان بيونان ، فانبروا للرد عليه، وكيف يرضون أن يكون للقحطانيين أبناء عم على شاكلة اليونانيين ، وقد

---

١ التنبيه (ص ٩٤) .
٢ مروج الذهب (١/٣٠٧ فما بعدها) التنبيه (ص ٧٨) .
٣ التنبيه والاشراف (ص ٧٨) .
٤ مروج الذهب (١/١٧٨) (وقد ذكر ان يونان اخو قحطان . . . وقد كان يعقوب ابن اسحاق الكندي يذهب في نسب يونان الى ما ذكرنا) .

كانوا أمهر من الفرس ، ولهم دولة كبرى . فقال أحدهم ، وهو أبو العباس الناشىء :

وتخلط يوناناً بقحطان ضلّة لَعَمْري لقد باعدت بينها جِدّا[1]

وأضاف القحطانيون الأتراك اليهم أيضاً ، فزعموا أن معظم أجناس الترك وهم (التبت) من حمير ، وأن التبع (شمر يرعش) أو تبعاً آخر ربتهم هناك، وأن (شمر يرعش) هو الذي أمر ببناء (سمرقند) ، الى غير ذلك من أقوال لا ترضي العدنانيين بالطبع ، وفي ذلك يقول (دِعْبِل بن علي الخُزاعي) في قصيدته التي يردّ بها على (الكميت) ، وفخر فيها بمن سلف من ملوكهم وسير في الأرض،وان لهم من الفضل ما ليس لمعدّ بن عدنان ، فقال في شعره:

هم كتبوا الكتاب بباب مَرو وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم جمعوا الجموع بسمرقندٍ وهم غرسوا هناك التبتينا[2]

وأضافوا (الضحّاك) اليهم ، وصيروه من (الأزد) ، والأزد من اليمن، فهو يماني إذن أصيل[3] . و (الضحّاك) هو (بيوراسب) عند أهل الأخبار . وقد ملكوه الف سنة . وهو بطل أسطوري عند الفرس[4] . وقد أخذ أهل الأخبار (ضحّاكهم) هذا من (إسحاق) ، كما أخذ العدنانيون (ويزكهم) من (إسحاق) فصيروه (منشخر) على نحو ما ذكرت . وقد قلت إنّ معنى (إسحاق) في العبرانية الضحّاك . فالقحطانيون فعلوا هذا فعل العدنانيين ، لجأوا الى اسحاق فصيروه (الضحّاك) ، وبدلاً من أن يقولوا إنه (ويزك) من اسم (إسحاق) في العبرانية أخذوا معنى الاسم فصيروه اسماً عربياً هو الضحاك. وجعلوه قحطانياً من الأزد .

وكان كل فريق يرد على مزاعم الفريق الآخر ، حين يضيف اليه أمة من الأمم . فلما ادعى العدنانيون انهم هم والاسرائيليون والأعاجم من نسب واحد ،

---

١ مروج الذهب (١٧٨/١) ، ابن خلدون (١٨٤/٢) .
٢ مروج الذهب (٣٠٠/١) .
٣ مروج الذهب (ص ٧٦) .
٤ التنبيه (ص ٧٥) .

انبرى (دعبل الخزاعي) يرد عليهم في قصيدة ساخرة يقول فيها :

فان يك آل اسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنسَ الخنازير اللواتي مسخن مع القرود الخاسئينا
بأيلة والخليج لهم رسوم وآثار قدمن وما محينا
لقد علمت نزار ان قومي الى نصر النبوة فاخرينا

قال هذه القصيدة في الرد على (الكميت) ، وهو لسان من ألسنة النزارية، وقد تعرض فيها باليمانية وتهكم عليهم[1] .

حتى الموالي ، وهم كما نعلم من أصل غير عربي،أسهموا في هذه المعركة ، وحاربوا في الصفوف الأولى منها ، تعصب كل منهم للجانب الذي دخل في ولائه . هذا (أبو نواس) ، وهو مولى (بني حكم بن سعد العشيرة) ، يتعصب للقحطانية ويدافع بكل قواه عنها ، لأن (بني الحكم) من اليمن . وقد حمله تعصبه لهم على نظم قصيدة هجا فيها قبائل نزار بأسرها وافتخر بقحطان وقبائلها ، وقد أوجعت النزاريين وآلمتهم ، فشكوه الى الخليفة الرشيد،وهو منهم، فأمر بحبسه بسببها ، وقيل انه حده لأجلها ، وأولها :

لست لدار عفت وغيّرها ضربان من قطرها وحاصبها

ثم قال مفتخراً باليمن وذاكراً للضحاك :

فنحن أرباب ناعظ ولنا صنعاء والمسك في محاربها
وكان منا الضحاك يعبده الـ ـسخابل والطير في مساربها

ثم يستمر فيقول في هجاء نزار :

واهج نزارا وافرِ جلدتها وكشّف الستر عن مثالبها[2]

وأثارت هذه القصيدة جماعة من النزارية ، فردت عليه . وكان منهم رجل

---

١ مروج (١/٣٠٠) .
٢ التنبيه (ص ٧٦ فما بعدها) .

من (بني ربيعة بن نزار) ، فقال يذكر نزاراً ومناقبها ، واليمن ومثالبها في قصيدة أولها :

دع مدح دار خبا وانتهى عهد معدّ بزعم عاتبها

ثم استمر ، فقال :

فامدح معداً وافخر بمنصبها الـ ـعالي على الناس في مناصبها
وهتك الستر عن ذوي يمن أولاد قحطان غير هائبها [1]

وقد أنتج هذا النزاع القحطـاني العدناني قصصاً وحكايات وشعراً دُوّن في الكتب ، وأنتج (حديثاً) زعم أن قائله هو الرسول ، قاله في مدح قحطان أو في مدح عدنان ، وأحياناً في مدح القبائل ، مثل : حمير ومذحج وهمـدان وغسّان ، وقبائل أخرى أو في مدح بيوتات معينة من مثل هذه القبائل .

لقد تلوّن هذا النزاع بلون أدبي زاهٍ لا يخلو من طرافة وإن كان قد أساء من الناحية السياسية الى هذه الأمة أيما اساءة . فقد لوّن اليمانون تأريخهم القديم بألوان زاهيـة جميلة من القصص والحكايات والأخبار ، فهم الذين زعموا أن قحطان هو ابن هود النبي ، فأوصلوا نسبهم بالأنبياء ، وهم الذين أوصلوا نسب قحطان الى إسماعيل ، فنفوا بذلك أي فضل كان للعدنانيين على القحطانيين في الآباء والأجداد ، وهم المسؤولون عن هذا التقسيم المشهور المعروف للعرب وجعل القحطانيين في الطبقة الأولى من العربية بالنسبة الى العدنانيين ، وهم الذين نظموا في الإسلام تلك الأشعار والقصائد الـتي ذكرها الرواة على أنها من نظم التبابعة وملوك القحطانيين ، وهم الذين ساقوا تلك الحكايات عن الفتوحات العظيمة لملوك اليمن وعن حكم القحطانيين للعدنانيين واستذلالهم إياهم .

وقد استغل العدنانيون ظهور الرسول بينهم ، فاتخذوا من هذا الشرف ذريعة للتفاخر والتباهي على القحطانيين . وقد أجابهم اليمانون على ذلك بأنهم هم الذين كان لهم شرف نصرة الرسول وإعلاء كلمة الله ، وهم الذين كوّنوا مادة الجيش الإسلامي ، وهم الذين آووا الرسول وفتحوا مكة . وتمسك العدنانيون بـأذيال

---

١ التنبيه (ص ٧٧) .

إبراهيم وعدّوه جدهم الخاص بهم ، مع أنه جدّ العرب عامة ، كما في القرآن الكريم ، ونفوا كل مشاركة للقحطانيين في هذا النسب الشريف . وقد كان لهم ما يساعدهم في تقوية حجتهم ، فقد كان الرسول من صلب اسماعيل والرسول منهم ، فابراهيم هو أبو المختص بهم . ولرد دعوى الإسماعيليين هذه من اختصاص إسماعيل وابراهيم بهم . وصل بعض رواتهم نسب قحطان بإسماعيل وإبراهيم ، ولم يكتفوا بذلك فلا بد لهم من شرف زائد ، ورجحان على العدنانيين الذين لم يبدأ ملكهم إلا في الإسلام ، فاختصوا هوداً بهم ، وجعلوه نبياً يمانياً . ثم لم يقبلوا بنبي واحد زيادة على الأنبياء الذين اختص بهم العدنانيون فأضافوا اليهم صالحاً النبي وقالوا : إنه من صميم حمير وإنه صالح بن الهميع بن ذي ماذن نبي حمير من آل ذي رعين ، وزعموا أن ثقفياً كان غلاماً له[1] ، وحصلوا بذلك على نبي وطعنوا في ثقيف ، وهم من العدنانيين في الوقت نفسه ، وأضافوا اليهم نبياً آخر من صميم حمير سموه أسعد تبع الكامل بن ملكي كرب بن تبع الأكبر ابن تبع الأقرن ، وقالوا إنه ذو القرنين الذي قال الله تعالى فيه : (أهم خيرٌ أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين)[2] . وذكروا أنه كان من أعظم التبابعة وأفصح شعراء العرب ، ولذلك قال بعض العلماء فيه ذهب ملك تبع بشعره ، ولولا ذلك لما قدم عليه شاعر من العرب وقالوا : نهى النبي عن سبّه ، لأنه آمن به قبل ظهوره بسبع مئة عام ، وليس ذلك إلا بوحي من الله عز وجلّ . وهو أول من كسا البيت ، وجعل له مفتاحاً من ذهب . وأوردوا له أشعاراً لاثبات ايمانه بالرسول تمنى فيها لو أدرك ايامه إذن لآمن به ، ولكان له وزيراً وابن عم ، ولألزم طاعته كل من على الأرض من عرب وعجم ، ورووا له أبياتاً في البيت الحرام ، وكيف كان يقصده فيمكث فيه تسعة أشهر ، وكيف كان ينحر في العام سبعين ألفاً من البدن[3] .

وزعموا فوق هذا كله أنه تنبأ بعودة ملك حمير حيث يظهر المهدي منهم ، وهو رجل حميري سبئي الأبوين ، يعيد الملك الى حمير بالعدل ، في هذه الأبيات التي رواها عُبَيْد بن شَرْيَة الجُرهمي :

---

١ منتخبات (ص ٦٢) .
٢ منتخبات (ص ١٣) .
٣ منتخبات (ص ١٣)

ومن العجائب أن حمـ ـير سوف تعـلى بالقهور
ويسودها أهـل المـوا شي من نضير أو نضـير

يعني النضر بن كنانة ، وهـو قريش :

ويثيرهـا المنصـور من جنبي أزال كالصقـور
وهـو الإمام المرتجى المـ ـذكور من قدم الدهور

وأنه قال :

بمنصور حمـير المرتجى يعود من الملك ما قد ذهب
ويرجع بالعـدل سلطانها على الناس في عجمها والعرب

وقالو ان المنصور هو لقب القائم المنتظر الذي سيظهر ليعيد ملك حمير المسلوب[1] .

وذكروا انه كان في جملة ما قاله من شعر قوله :

واعلم بنيَّ بأن كل قبيلة ستذل ان نهضت لها قحطان[2]

الى غير ذلك من أشعار نسبت اليه والى غيره من التبابعة تتحدث عن حقد القحطانيين على العدنانيين ، وعن ألمهم الشديد لفراق ملكهم وانتقال الحكم منهم الى المكيين ، وقد كانوا من أتباعهـم بالأمس . فعللوا أنفسهم بالتحدث عن الماضي ، ثم صبروا أنفسهم بالحديث عن ملك سيعود ، وعن دولة ستأتـي ، وعن مهدي يأخذ بالثأر ، كالذي يفعله المغلوبون . وجعلوا ذا القرنين الذي ورد اسمـه في سورة الكهف منهم[3] ، فقالـوا : هو الهميسع بن عمرو بن زيد ابن كهلان ، أو الصعب بن عبدالله بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر ، أو تبع الأكبر بن تبع الأقرن ، أو تبع الأقرن ، وكان مؤمناً عالماً عادلاً ، ملك جميع الأرض وطافها ، ومات في شمال بلاد الروم حيث يكون النهار ليلاً اذا انتهت الشمس الى برج الجـدي . وقد كان يقول الشعر ، وهو الذي بشر

---

١ منتخبات (ص ١٠٣) .
٢ منتخبات (ص ٨٣) .
٣ سورة الكهف : ١٨ ، الاية ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٤ .

بالنبي في شعره ، وطبيعي أن يكون واضعو هذه الأشعار أناساً من الأنصار ومن بقية فروع قحطان[1] .

وتعلق متعصبو اليمانية بالأبنية الفخمة وبالمدن الكبرى ، فجعلوها من أبنية ملوكهم أو من أبنية أسلافهم العرب العاربة . وقد ذكر المسعودي ان من اليمانية من يرى أن الهرمين اللذين في الجانب الغربي من فُسطاط مصر ، هما قبرا (شداد بن عاد وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر في قديم الدهر ، وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم)[2] . ونسبوا لملوكهم الفتوحات الفخمة في الشرق والغرب .

وأضافوا اليهم لقمان الحكيم ، زعموا انه لقمان الحميري ، وقالوا انه كان حكيماً عالماً بعلم الأبدان والأزمان ، وهو الذي وقّت المواقيت ، وسمّى الشهور بأسماء مواقيتها . وزعموا أن ياسر ينعم ملك بعد سليمان بن داوود ، وسمي ينعم ، لأنه ردّ الملك الى حمير بعد ذهابه ، وان الضحاك ملك من الأزد كان في وقت ابراهيم فنصره . وبذلك كانت للقحطانيين منة قديمة على ابراهيم وعلى العدنانيين بصورة خاصة . وقالوا أشياء أخرى كثيرة ، قد يخرجنا ذكرها من صلب هذا الموضوع من أعمال وفتوحات لشمر يرعش وغيره من التبابعة[3] .

وقد لوّن العدنانيون تأريخهم ، واستعانوا بالشعر ، فوضعوا منه ما شاءوا في الرد على القحطانيين . قال ابن سلام « نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية ، فاستكثرت منه في الإسلام »[4] ، وعقبوا على الروايات القحطانية . فلما ادعى اليمانون مثلاً ان تبعهم (أبا كرب) فتح العراق والشام والحجاز ، وانه امتلك البيت الحرام ، ونكل بالعدنانيين شر تنكيل ، وانه قال شعراً، منه :

---

١ قال النعمان بن بشير :

فمن ذا يفاخرنا من الناس معشر ... كرام فذو القرنين منا وحاتم
ونحن بنينا سد يأجوج فاستوى ... بايماننا ، هل يهدم السد هادم ؟

وقال لبيد :

والصعب ذو القرنين اصبح ثاويا ... بالحنو في جدث هناك مقيم

منتخبات (ص ٦١ ، ٨٤ فما بعدها) .

٢ التنبيه (ص ١٨) .

٣ منتخبات (ص ٥٦ ، ٦٥)

٤ في الادب الجاهلي (ص ١٢٣) .

لست بالتبع اليماني إن لم تركض الخيل في سواد العراق
أو تؤدي ربيعة الخرج قسراً أو تعقني عوائق العواق

قال العدنانيون : نعم ، وقد كانت بين تبع هذا وقبائل نزار بن معد وقائع وحروب ، واجتمعت عليه معد من ربيعة ومضر وإياد وأنمار ، فانتصرت عليه، وأخذت الثأر منه ، وفي ذلك قال أبو دُوَاد الإيادي :

ضربنا على تبّع حربه حبال البرود وخرج الذهب
وولى أبو كرب هارباً وكان جباناً كثير الرهب
وأتبعته فهوى للجبين وكان العزيز بها من غلب[1]

إلى غير ذلك من القصص والحكايات التي وضعها الرواة في صدر الإسلام حين احتدم الخلاف بين الأنصار وقريش ، سجلت في الكتب ، ورويت للناس، وانتشرت بينهم على انها أمور واقعية ، وان العرب كانوا من أصلين : قحطان وعدنان .

وقد كان لكل فريق رواة وأهل أخبار يقصون على الناس قصصاً وأخباراً في أخبار النزاع القحطاني العدناني . فوضع (عُبيد بن شَرية الجُرهمي) كثيراً من القصص والأشعار عن العرب الأولى وعن القحطانيين ، وضع ذلك لمعاوية ابن أبي سفيان ، وكان معاوية مغرماً بسماع أساطير الأولين وأخبار الماضين ، كما سبق أن أشرت الى ذلك .

ووضع (يزيد بن ربيعة بن مفرغ) المتوفى سنة (٦٩) للهجرة ، وهو شاعر متعصب لليمن ، قصص (تبع)[2] . جاء في كتاب الأغاني : « سئل الأصمعي عن شعر تبع وقصته ومن وضعها ، فقال : ابن مفرغ . وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيره الى الشام وتخلصه من عبيد الله بن زياد ، أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين ، وزعم أنه من حمير ، ووضع سيرة تبع وأشعاره . وكان النمر بن قاسط يدعي أنه منهم »[3] .

---

١ مروج الذهب (١/٣٠٠) .
٢ Muh. Stud. Bd. I,S. 97.
٣ الاغاني (١٧/٥٢) .

وظهرت كتب ضمت أخبار التبابعة وقصصهم ، أشار اليها المسعودي ، دعاها بـ (كتب التبابعة)[1] : وقد وقف عليها ونقل منهـا ، وهي كما يظهر من نقله ومن نقل غيره منها من هذه الأساطير المنسوبة الى عبيد ووهب ويزيد ابن المفرغ وأمثالهم من أصحاب القصص والأساطير .

وكان بين العدنانيين والقحطانيين جدل وكلام في لغة (اسماعيل) ، فاليمانيون ومنهم (الهيثم بن عدي الطائي) كانوا يرون أن لسان (إسماعيل) الأول هو اللسان السرياني ، ولم يكن يعرف العربية . فلما جاء الى مكة وتصاهر مع جرهم، أخذ لسانهم وتكلم به ، فصار عربيـاً . أما النزارية ، فكانت تنفي ذلك نفياً قاطعاً ، وترده رداً شديداً ، وتقول لو كان الحال كما تزعمون : (لوجب أن تكون لغته موافقة للغـة جرهم أو لغيرها ممن نزل مكة . وقد وجدنا قحطان سرياني اللسان ، وولده يعرب بخلاف لسانه . وليست منزلة يعرب عند الله أعلى من منزلة إسماعيل ، ولا منزلة قحطان أعلى من منزلة ابراهيم ، فأعطاه فضيلة اللسان العربي التي أعطيها يعرب بن قحطان)[2].فنفوا النزارية العربية عن قحطان أيضاً وصيروه كإسماعيل سرياني اللسان .

وقد عقب (المسعودي) على هذا النزاع النزاري القحطاني بقوله : « ولولد نزار وولد قحطان خطب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتي عليها كتابنا هذا في التنازع والتفاخر بالأنبياء والملوك وغير ذلك مما قد أتينـا على ذكر جمـل من حجاجهم وما أدلى به كل فريق منهم ممن سلف وخلف »[3]. ونجد جملاً كثيرة من هذا النوع مبثوثة في كتابيه : مروج الذهب ، والتنبيه والاشراف ، تتحدث عن ذلك النزاع المرّ المؤسف الذي وقع بين العرب في تلك الأيام .

ولعل هـذه العصبية الجاهليـة ، هي التي حملت جماعة من المتكلمين منهم (ضرار بن عمرو بن ثمامة بن الأشرس) و (عمرو بن بحر الجاحظ) على الرغم ان (النبط) خير من العرب ، لأن الرسول منهـم ، ففضلوهم بذلك على العدنانيين والقحطانيين . وهو قول رد العدنانيون والقحطانيون عليه[4] . قال به

---

١ مروج الذهب (٢٧٩) .
٢ مروج الذهب (٢٧٧/١) .
٣ مروج الذهب (٢٧٧/١) .
٤ مروج الذهب (٢٦٦/١ فما بعدها) .

المتكلمون متأثرين بآراء أهل الكتاب في أنساب أبناء إسماعيل وبآرائهم الاعتزالية التي تكره التعصب في مثل هـذه الأمور . وقد ذكر (المسعودي) شيئاً من الرد الذي وضعـه القحطانيون والعدنانيون ضد هؤلاء .

العرب العاربة والعرب المستعربة :

أما مصطلح (العرب العاربة) و (العرب المستعربة) ، فهما على ما يتبين من روايات علماء اللغة والأخبار من المصطلحات القديمة التي تعود الى الجاهلية ، ولكننا لو درسنا تلك الروايات خرجنا منها ، ونحن على يقين بأن الجاهليين لم يطلقوهما بالمعنى الذي ذهب اليه الإسلاميون ، بل قصدوا بهما القبـائل البعيدة عن أرض الحضارة ، والقبـائل القريبة منها ، فقد عرفت القبائل النازلة ببلاد الشام والساكنة في أطراف الإمبراطورية البيزنطية بـ (المستعربة) . و (المستعربة) مصطلح أطلق على هذه القبائل وعلى القبائل النازلة في سيف العراق من حـدود نهر الفرات الى بادية الشام ، فهو يشمل إذن القبـائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القوس الذي يحيط بحدود الامبراطوريتين . ومن المستعربـة غسان وإياد وتنوخ[1] . وقد فضلت غالبية هذه المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع قريبة من البوادي والصحارى ، عرفت عندهم بـ (الحاضر) ، فكان في أكثر مدن بلاد الشام حاضر يقيم به العرب من تنوخ ومن غير تنوخ[2] .

وقد وجدت في تأريخ الطبري خبراً زعم انه جرى بين (خالد بن الوليد) ، وبين (عدي بن عدي بن زيد العبادي) ، يفهم منه أن العرب : عرب عاربة وأخرى متعربة . وقد جرى بينهما على هذا النحو : (قال خالد : ويحـكم : ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم ، فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة . فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عـدي : ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان الا بالعربية)[3] . فيفهم من هذا الحديث ان العرب : عرب عاربة وعرب متعربة . وهم أناس تعربوا فصاروا عرباً . وهو كـلام معقول

---

١ البلاذري (١٧١) .
٢ البلاذري (١٨٠) ، و (الحاضر : الحي العظيم او القوم ... حاضرطيء) ، تـاج العـروس (١٤٨/٣) .
٣ الطبري (٣٦١/٣) .

مقبول ، ولا سيما بالنسبة الى الحيرة والعراق وبلاد الشام ، حيث تعرب فيها كثير ممن لم يكن عربياً في الأصل فصاروا عرباً ، لسانهم لسان العرب . ولا يفهم من هذا الكلام بالطبع تقسيم العرب بالمعنى المفهوم عند أهل الأخبار والتأريخ ، أي عرب قحطانيون وعرب عدنانيون . وكل ما قصد به ان صح ان هذا الكلام هو كلام (خالد) وكلام (عدي) حقاً تعنيف وتأنيب لعدي بن عدي بن زيد على وقوفه هو وقومه وأهل الحيرة موقفاً معادياً للمسلمين ، وتأييدهم للفرس ولدفاعهم عنهم ، مع انهم عجم بعيدون عنهم . فكأنه قال لهم : لو كنتم عرباً فكيف تؤيدون عجماً علينا ونحن عرب ؟ و (عدي) من العرب ، وأبوه من تميم كما يقول النسابون . فهو ليس من العرب الأخرى المتعربة ، ولكن من العرب العاربة ، أي عرب بالأصالة ، كما أن خالداً نفسه من العرب العاربة ، لأنه عربي أصلاً وان كان عدنانياً . فلم يقصد بالعرب العاربة هنا العرب القحطانيين ، ولا بالعرب المتعربة العرب العدنانيين . فالعرب المتعربة اذن هم المتعربون من أهل الحيرة وغيرهم ، ممن كانوا من النبط وبني إرم أو غيرهم ثم دخلوا بين العرب ولحقوا بهم ، فصار لسانهم لساناً عربياً مثل العرب الآخرين وتعربوا بذلك .

ويلاحظ ان (غسان) قد أدخلت في (المستعربة) ، مع انها من العرب العاربة ، أي من العرب القحطانيين في عرف النسابين . وفي ذلك دلالة على ان مدلول العرب العاربة والعرب المستعربة لم يكن في الجاهلية وفي صدر الإسلام بالمعنى الذي صار عليه عند علماء النسب وأهل الأخبار ، وان تخصيص العرب العاربة بالقبائل التي ترجع نفسها الى اليمن ، والعرب المستعربة بالقبائل التي يرجعون نسبها الى عدنان ، قد وقع من النسابين في أيام الأمويين فما بعد .